

المبحث الخامس

الهداية والإضلال

إن مسألة هداية الله تعالى للعبد وإضلاله له هي قلب أبواب القدر ومسائله، لأن أعظم نعمة الهداية، وأعظم مصيبة هي مصيبة الضلال⁽¹⁾.

أولاً: مراتب الهداية:

1 - الهداية العامة:

وهي هداية كل مخلوق لما يصلح أمور معاشه، وهي أعم المراتب، وهي شاملة لجميع المخلوقات ودليلها قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ [طه: 50].

وهذه الهداية تعم جميع المخلوقات، وتعم سائر أمور المعاش من نكاح، وطعام وشراب، وجميع السلوك التي يهدي الله تعالى مخلوقاته لعملها من غير تعليم سابق، كهداية النمل إلى تنظيم طرق المعاش وخبز الطعام وغير ذلك مما يحار العقل البشري فيه فسبحان من خلق فسوى ثم قدر فهدى⁽²⁾.

(1) شفاء العليل، ص: 117 لابن القيم.

(2) المصدر نفسه، ص: 117 إلى 129.

2 - هداية الإرشاد والدعوة والبيان :

وهي أخص من التي قبلها حيث إنها مختصة بالمكلفين من الخلق، والمراد بها دعوة الخلق وبيان الحق لهم، وهي حجة الله على خلقه، فلا يعذب أحداً إلا بعد إرسال الرسل وإنزال الكتب.

- قال تعالى: ﴿رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾﴾ [النساء: 165].

- وقال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [يونس: 47].

- وقال تعالى: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾﴾ [البند: 10].

- وقال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء:

[15].

- وقال تعالى: ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْتِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلْتَهُمْ خَزَنَتْنَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾﴾ قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾﴾ [الملك: 8-9].

وهذه الهداية هي التي أثبتها الله ﷻ لنبيه ﷺ في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَهْدَىٰ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: 52].

وهي ثابتة من بعده للعلماء، والدعاة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة⁽¹⁾، وهي مرتبة عامة يشترك فيها الناس جميعاً،

(1) أصول الاعتقاد في سورة يونس، قذلة بنت محمد القحطاني، ص: 508.

ولكنها لا يلزم عنها هداية التوفيق واتباع الحق، فكثير من الذين أرسل إليهم الرسل وأنزلت عليهم الكتب، لم يؤمنوا وآثروا طرق الغواية ﴿وَمَحَدُوا بِهَا وَاسْتَفْتَتَهَا أَنْفُسَهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [النمل: 14] أي جحدوا بالآيات بعد تيقنهم من صحتها وهذا النوع من الهداية عام للمؤمن والكافر⁽¹⁾.

وحجة الله قائمة بهذه الهداية بعدة أمور وهي:

في الآيات السمعية وهي متمثلة فيما يلي:

إرسال الرسل.

إنزال الكتب، بما فيها من الحق والبيان.

- البيان بالآيات الكونية والنظر في الآفاق، قال تعالى: ﴿قُلْ أَنْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُعْنِي الْأَيْدِ وَالنُّجُودُ عَنِ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: 101].

- بيان الصراط المستقيم، وإقامة أسباب الهداية، باطناً وظاهراً، ومن لم تكتمل عنده هذه الأسباب لصغر أو لزوال عقل أو نحو ذلك فهؤلاء رفع عنهم التكليف، ولم يكلفهم الله تعالى إلا ما في وسعهم ودليل هذه المرتبة من سورة يونس عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَيْكَ دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَيْكَ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [يونس: 25]، فاشتملت هذه الآية الكريمة على هداية البيان والإرشاد في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهَلَكْنَا الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ

(1) العقيدة الإسلامية د. أحمد جلي، ص: 382.

بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿ [يونس: 13].

- وقال تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمُ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ ﴿ [يونس: 74]، نفي لهداية التوفيق عنهم لظلمهم وهذا كما في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا نُمُودٌ فَهَدَيْتَهُمْ فَاسْتَحَبُوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمُ صَعِقَةٌ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿ [فضلت: 17]. فهداهم في الهداية الأولى هداية البيان والإرشاد فأعرضوا عنها لم يقبلوها فعاقبهم الله تعالى بالضلال جزاء إعراضهم وردهم الحق⁽¹⁾.

3 - هدية التوفيق والإلهام وخلق المشيئة المستلزمة للفعل⁽²⁾:

وهذه لا يقدر عليها إلا الله ﷻ، فمن شاء هدايته اهتدى، ومن شاء ضلاله ضل، وهي أخص مما قبلها إذ هي خاصة للمهتدين من المكلفين، وهي حتمية الوقوع وهي التي نفاها الله تعالى عن رسوله في قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ [القصص: 56].

وقال تعالى: ﴿مَنْ يَشَأِ اللَّهُ يُضِلَّهُ وَمَنْ يَشَأِ يُجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿ [الأنعام: 39].

- وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلَّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿ [إبراهيم: 4].

(1) أصول الاعتقاد في سورة يونس، ص: 510.

(2) العقيدة الإسلامية أحمد جلي، ص: 382.

- وقال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوْنَهُ وَأَصْلَهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ عِثْرَ شَوْءٍ فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الجنائية: 23].

- وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِي مَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾﴾ [يونس: 19].

- وقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٥﴾﴾ [يونس: 25].

- وقال تعالى: ﴿كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: 33].

- وقال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمْ مَنْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يَهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [يونس: 35].

- وقال تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ ﴿٤٤﴾﴾ [يونس: 40].

- وقال تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَبَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْعُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ﴾ [يونس: 74].

- وقال تعالى: ﴿رَبَّنَا أظْمَسَ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَأَشَدَّدَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس: 88].

- وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَمَا كَانَتْ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿﴾ [يونس: 99-100].

والواقع أن استقراء النصوص القرآنية يكشف أن هذه الهداية وما يقابلها من الإضلال ليستا في الإنسان ابتداء خلقه، بل هما نتائج لمقدمات، ومسببات لأسباب، فكما جعل الله تعالى الطعام سبباً في الغذاء والماء سبباً للري، والسكين ينتج عنه القطع والنار تسبب الحريق، فكذلك جعل أسباباً توصل إلى الهداية وأسباباً تقود إلى الضلال، فالهداية إنما هي ثمار العمل الصالح، والضلال إنما هو نتاج عمل قبيح وإسناد الهداية لله من حيث أنه وضع نظام الأسباب والمسببات لا أنه أجبر الإنسان على الضلال والهداية وهذا المعنى واضح جداً في الآيات القرآنية مثل:

- قوله تعالى: ﴿وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾ [الزهد: 27].
 - وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلًا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾ [العنكبوت: 69].
 - وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ أَهْدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴿٧﴾﴾ [محمد: 17].

فهذا الهداية لله للناس بمعنى لطفه بهم وتوفيقهم للعمل الصالح إنما هي ثمرة جهاد للنفس، وإجابة إلى الله واستمساك بإرشاده ووجيه⁽¹⁾.

(1) العقيدة الإسلامية د. أحمد جلي، ص: 383.

وفي الإضلال يقول تعالى: ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ (٢٦) الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿ [البقرة: 26-27].

- وقال تعالى: ﴿يَثْبُتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ (٧) [إبراهيم: 27].

- وقال تعالى: ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ [غافر: 35].

- وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [الصف: 5].

- وقال تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (٧) [المطففين: 14].

- وقال تعالى: ﴿بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: 155].

فسبب الضلال هو الزيغ، والخروج عن تعاليم الله والكبر والجبروت والتعالي على الناس بغير حجة، ونقض عهد الله، وقطع ما أمر الله به أن يوصل ووصل ما أمر الله به أن يقطع، والإفساد في الأرض، والكفر واقتراف الآثام، فهذه من الأسباب التي أضلت الناس وأخرجتهم عن منهج الحق لأنهم آثروا العمى على الهدى، واستحبوا الظلام على النور، فكان أن كافأهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم، بمقتضى نظامه سبحانه في ارتباط الأسباب بمسبباتها وهذا

ونحوه كثير في كتاب الله ومن ذلك:

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَأَنَّا لَّا نَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٧٦﴾ [الأعراف: 179]⁽¹⁾.

4 - الهداية إلى طريق الجنة:

وهذه الهداية تكون في الآخرة بعد الحساب والجزاء ودليلها:

- قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِذْنِهِمْ تَجْرَىٰ مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٩﴾ [يونس: 9].

- وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿٤﴾ سَيُجْرِيهِمْ وَيُصَلِّحُ بِأَلَمِهِمْ ﴿٥﴾ [محمد: 4-5].

وهذه الهداية حاصلة لهم بعد قتلهم، فدل على أن المراد بها هداية إلى طريق الجنة على القول الراجح⁽²⁾.

ثانياً: أسباب الهداية: كثيرة منها:

1. المحافظة على الفطرة الإنسانية نقية صافية:

الفطرة الإنسانية مفطورة على الإقرار بالله وإفراده بالربوبية والألوهية، فالنفس بفطرتها إذا تركت كانت مقرة لله بالألوهية محبة

(1) العقيدة الإسلامية د. أحمد جلي، ص: 384.

(2) أصول الاعتقاد في سورة يونس، ص: 512.

له، متعبدة، لا تشرك به شيئاً⁽¹⁾، وأصل هذا العلم فطري ضروري وأشد رسوخاً في النفس من مبدأ العلم الرياضي، كقولنا: إن الواحد نصف الاثنين، ومبدأ العلم الطبيعي أن الجميع لا يكون في مكانين، لأن هذه المعارف قد تعرض عنها أكثر الفطر، أما العلم الإلهي فما يتصور أن تعرض عنه فطرة⁽²⁾، فالإقرار بالله هو أرسخ المعارف، وأثبت العلوم، وأصلح الأصول⁽³⁾.

- قال تعالى: ﴿فَأَقْوَصَ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا يَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَوِيمُ وَلَكِن كَثُرَ الْنَّكَاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ مُبِينٌ إِلَيْهِ وَانْقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٣٧﴾﴾ [الزوم: 30-31].

- وقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٦﴾ أَوْ قُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَنهَلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْتَطِلُونَ ﴿١٧٧﴾ وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٨﴾﴾ [الأعراف: 172-174].

عن أبي هريرة قال: قال عليه الصلاة والسلام: «ما من مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه، كما تنتج البهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء حتى تكون أنتم

(1) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (8/ 205).

(2) المصدر نفسه (2/ 16).

(3) السنن الإلهية د. شريف الشيخ، صالح (1/ 209).

تجدعونها»، ثم يقول: ﴿فَظَرَّتْ اللَّهُ أَلَّتِي فَظَرَ النَّاسَ عَلَيَّآ لَا بَدِيلَ لِحَلْقِي﴾ [الزوم: 30]⁽¹⁾.

وفي صحيح مسلم عن عياض بن عمار عن النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه تبارك وتعالى أنه قال: «إني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهن عن دينهم، وحرمت ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطاناً»⁽²⁾.

وهذا صريح في أنه سبحانه خلقهم على الحنيفية وأن الشياطين اجتالتهن بعد ذلك⁽³⁾.

وقد فطر الله ﷻ الإنسان أيضاً على معرفة الحق ومحبته له، وقد هداه ربه إلى أنواع من العلم، يمكنه أن يتوصل إلى سعادة الدنيا والآخرة، وجعل في فطرته محبة ذلك، فإذا نظر الإنسان فيما جاء به الرسول ﷺ أو في حاله في آياته أو نحو ذلك من شؤونه يحصل له العلم والإقرار بالنبوة، ثم إذا قوي النظر في أحواله حصل له من اليقين الضروري الذي لا يمكن دفعه⁽⁴⁾.

فلا شك أن الإيمان والاهتداء هو الأصل، وأن الكفر والضلال هو الطارئ الذي يطرأ على النفس لسبب من أسباب الضلال⁽⁵⁾.

وقد أشارت الآيات والأحاديث التي أوردتها إلى بعض هذه

(1) البخاري، فتح الباري (8 / 512)، مسلم (4 / 2047).

(2) مسلم، ك الجنة وصفة نعيمها (4 / 2197).

(3) شفاء العليل، ص: 595.

(4) مجموع الفتاوى لابن تيمية (2 / 72).

(5) شرح العقيدة الطحاوية، ص: 272.

الأسباب، فأشارت الآية الأولى أن الذي يصرف الفطرة عن الإيمان هو عدم العلم، فأشارت الآية الثانية إلى الغفلة والتقليد، وأنهما يصرفان الفطرة عن الإيمان بالله ورسوله بعدما أقام عليه الحجة بالفطرة والرسالة ﴿أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ * أَوْ نَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ [الأعراف: 172 . 173].

وأشار الحديث الأول إلى أثر التربية والعادة، وأن من لا يستخدم عقله ويهتدي بالدين الحق الذي يرشده إليه العقل والعلم، بل يطيع والديه، وإن أمراه بالضلال⁽¹⁾. وأشار الحديث الثاني إلى أثر الشياطين في تزيين الباطل في نفوس الناس وإضلالهم بذلك⁽²⁾.

إن أول أسباب الهداية، هو إبقاء هذه الفطرة نقية صافية تتلقى وحي الله وتستجيب له⁽³⁾.

2. استعمال السمع والبصر والعقل:

إن الله ﷻ وهب الإنسان هذه النعم وامتّن عليه بها، وذلك لما لها من غايات سامية، منها النظر والتفكير في آيات الله المرئية، والاستماع والتدبر في آيات الله المسموعة⁽⁴⁾.

- وقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ

(1) شرح العقيدة الطحاوية، ص: 273.

(2) السنن الإلهية في الحياة الإنسانية (1/ 211).

(3) المصدر نفسه (1/ 211).

(4) منهج التربية الإسلامية محمد قطب (1/ 77).

شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾
 [النحل: 78].

وقد جعل الله الإنسان مسؤولاً عن استعمال هذه الملكات والموهب وعن حسن توجيهه لها إلى ما خلقت له، قال تعالى:
 ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: 36].

وقد مضت سنة الله أن الإنسان إذا أحسن استخدام مواهبه من حواس ومشاعر ومدارك، ووجهها إلى إدراك دلائل الهدى في الكون والنفس، وما يجيء به الرسل من آيات وبيانات، فإنه يؤمن ويهتدي بهذا الإيمان إلى طريق الخلاص⁽¹⁾.

وبين ﷺ في آيات كثيرة أن الذين ينتفعون بالنظر في هذا الكون ومظاهره هم الذين يمعنون النظر والتفكير والتدبر بعقولهم، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفَلَكَ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: 164].

- وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: 164].
 ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: 164].
 ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: 164].

(1) في ظلال القرآن، سيد قطب (2/ 1821).

سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿ [آل عمران: 190-191].

إن الله ﷻ وهب الإنسان من القوة والملكات ما جعله طريقاً إلى هدايته إذا أحسن استخدامه، فاستعمال السمع والبصر والفؤاد في النظر في آيات الله، والتفكير في دلالاتها من أول سبيل الهداية إلى معرفة الله وصفاته، وإلى الإيمان بصدق رسله، وإلى مزيد من ذلك الهدى بعد الإيمان⁽¹⁾.

3 العلم:

ومن أسباب الهداية حسب سنته ﷺ في الهداية والضلال: العلم، وقد كانت أول آية نزلت في القرآن الكريم في الدعوة إليه: ﴿اقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ [العلق: 1].

وتوالى آيات القرآن الكريم بما يضيق المجال عن حصره في الدعوة إليه بيان فضل العلماء.

- قال تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: 114].

- وقال تعالى: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة: 11].

- وقال تعالى: ﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: 9].

- وقال تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾

(1) السنن الإلهية في الحياة الإنسانية (1 / 226).

[مَحَمَّد: 19] ، فأمر بالعمل بعد العلم⁽¹⁾ .

وقد جاء القرآن الكريم يكشف لنا بوضوح عن تلك العلاقة الوثيقة بين العلم والهداية في آيات كثيرة، وذلك بحديثه عن العلماء واستعدادهم بما لهم من علم لخشية الله وحسن النظر في آياته والاعتبار بها وإدراك ما فصله الله منزلاً على رسوله وشهود وحدانيته ﷺ⁽²⁾ .

قال الله ﷻ مبيناً أن العلماء هم الذين ينتفعون بالآيات المبثوثة في الكون، وهم الذين يستشعرون عظمة الله وقدرته، فيخشونه فيهديهم الله، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ تَرَى أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَعَرَبِيَّةٌ سُودٌ ۗ وَمِنَ النَّاسِ وَالْذَوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُمْ كَذَلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ۝﴾ [فاطر : 27 . 28]، فالذين يستفيدون من اختلاف ألوان الشمار والجبال والناس هم العلماء، وهم الذين يخشونه حق خشيته، لأنهم العارفون به وبصفاته جل جلاله، وكلما كانت المعرفة للعظيم القدير الموصوف بصفات الكمال، المنعوت بالأسماء الحسنى، كلما كانت المعرفة به أتم، والعلم به أكمل، كانت هدايتهم كذلك أتم وأكمل⁽³⁾ .

وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ

(1) السنن الإلهية في الحياة الاجتماعية (1 / 227).

(2) المصدر نفسه (1 / 228).

(3) المصدر نفسه (1 / 328).

مَنَازِلَ لِيَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٤٥﴾ [يونس: 5].

والعلماء هم أكثر استفادة وإدراكاً واعتاظاً واعتباراً بالأمثال التي يضر بها الله ﷻ في كتابه العزيز، ولأن امتلاكهم الأداء التي يعرفون بها عظمة وصدق هذه الأمثال، قال تعالى: ﴿وَذَلِكَ الْأَمْتَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [العنكبوت: 43] الذين يعقلون عن الله ﷻ وأما مغلقي القلوب فيتخذونها مادة للسخرية والتهمك⁽¹⁾.

كما أنهم الأكثر استفادة من تبين الآيات القرآنية وتوضيحها وتفصيلها، وغير العالم يستوي عنده الإجمال والتفصيل، لأنه يملك لا الأداة التي يميز بها بين ذينك الأمرين قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نَفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الأعراف: 32].

- وقال تعالى: ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَعَآتُوا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنَفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾﴾ [التوبة: 11].

- وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ النُّجُومَ لِيَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالنَّجْمِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [الأنعام: 97].

كما أن العلماء هم أكثر تأثراً بكلام الله ﷻ وأسرع استجابة له وأعظم خشوعاً وإحباتاً لعظمته، وجلاله، وأعظم إدراكاً لمحكمه

(1) السنن الإلهية في الحياة الاجتماعية (1/ 329)، زاد المسير لابن الجوزي (6/ 273).

ومتشابهه مما يجعلهم أكثر تسليماً وإذعاناً لما يتضمنه من عقائد وأحكام⁽¹⁾.

- قال تعالى: ﴿قُلْ ءَامِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٧٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٧٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَسْكُوتُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴿١٧٩﴾﴾ [الإسراء: 107-109].

- وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿١٢٩﴾﴾ [آل عمران: 7].

وإن العلماء هم الذين يعرفون قدر كلام الله وعظمته وإعجازه، وإن هذا الكلام لا يمكن أن يصدر عن بشر فيدفعهم ذلك إلى الإيمان والتسليم والإذعان والاستفادة مما حوى من هدى وبيان⁽²⁾.

- قال تعالى: ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَسْلَوْنَ مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّوْنَ بِمِيزَانِكُمْ إِذَا لَارْتَابَ الْمُظَلِّمُونَ ﴿٤٨﴾ بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [العنكبوت: 48-49].

والعلماء هم الأبعد عن إلقاءات الشيطان ونزغاته، ووسوسته

(1) السنن الإلهية في الحياة الإنسانية (1/ 230).

(2) المصدر نفسه (1/ 231).

وذلك لعلمهم بمدخله وأحابيله، فلا تزيدهم وسوسته إلا إيماناً و يقيناً وتسليماً بخلاف الجهلة الذين ينقادون لوسوسته وهم يحسبون أنهم يحسنون.

قال تعالى: ﴿لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادٍ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾﴾ [الحج: 53 - 54].

- وقال تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: 18].

ولا تدل هذه الآية الكريمة على مجرد تشريف الله سبحانه لأهل العلم حيث جمع شهادته بالتوحيد إلى شهادة ملائكته وشهادتهم بذلك، ولكنها تدل كذلك على أن علمهم هو الذي يؤهلهم إلى شهود وحدانية الله ﷻ وانفراده بالملك والتدبير، فالعلم من أول أسباب الهداية إلى معرفة طريق الله، والاستزادة منه سبيل إلى المزيد من هداه⁽¹⁾.

4. الإيمان:

إن في كل ذرة من ذرات هذا الوجود، وفي كل كائن من الكائنات لآية باعثة على الهدى، وإن في ذلك التنسيق البديع والتوافق بين سائر الكائنات لتوائم حياة الإنسان وسعادته فوق الأرض

(1) السنن الإلهية في الحياة الاجتماعية (1/ 232).

لآيات وآيات كثيرة تبعث على الاهتداء إلى الحق، وإن في القرآن الكريم وما حوى من دلائل وبيانات وما جاء فيه من موعظة وآيات تحيي القلب وتشفي الصدور وتهدي إلى الحق والصراط المستقيم، ولكن هذه الآيات وتلك لا تتضح ولا ينتفع بها إلا القلب المؤمن، فالكفر حجاب وحاجز كثيف يمنع من دخول نور القرآن في القلب ويمنع كذلك من الانتفاع بالآية الهادية في هذا الكون، فإذا زال هذا الحجاب وانكشف ذلك الحاجز انتفع الإنسان بتلك الآيات الكونية، وانفتحت أمامه أيضاً كنوز القرآن من الهدى والمعرفة وقد جاءت آيات كثيرة تبين أن المؤمن هو الذي ينتفع ويستفيد من الذكرى ومن هدى القرآن، ومن الآيات الباعثة على الهدى في هذا الكون:

- قال تعالى: ﴿طَسَّ تَلَكَّ ءَابَتْهُ الْقُرْمَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾ هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾﴾ [النمل: 1، 2].

- وقال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾﴾ [يونس: 57].

- وقال عز من قائل: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هَذَا بَصَآئِرٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: 203].

- وقال تعالى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: 102].

وقد أشارت هذه الآيات - وغيرها من الآيات في هذا المعنى - إلى معنيين رئيسين هما:

الأول: وهو أن القرآن الكريم فيه بيان وإرشاد لطرق الهداية،

وإنه زاجر بما فيه من الترغيب والترهيب، وارتكاب المعاصي، وإنه شافٍ لما في الصدور من الأمراض المفضية إلى الهلاك والشك والشرك والنفاق والضلال، وأنه هدى من الضلالة إلى الرشدهم والحق، وأنه يزيد المهتدي هدى، وأنه تثبت أيضاً للمهتدين على الهدى، وهو أنه رحمة للناس بكل ما حوى من أوامر ونواه واعتقادات وعبادات، وأنه نجاة لمن آمن به من عذاب الله وسبب في فوزه ودخوله الجنة⁽¹⁾.

الثاني: أن المؤمنين هم الذين ينتفعون بهدي القرآن ويستفيدون مما حوى فيهدتدون بهديه ويسيرون وفق هدايه، فيهدتدون إلى صراط مستقيم دون غيرهم من الجاحدين والكافرين به الذي هو عليهم عمى وضلالة وغم وخزي، وفي الآخرة جزاءهم على الكفر به الخلود في لظى⁽²⁾، وقد صرح القرآن الكريم بهذا المعنى في آيات منها:

- قال تعالى: ﴿هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا هُدًى وَشِفَاءً وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ [فصلت: 44].

- وقال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَاءً وَرَحْمَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: 82].

- وقال تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أَنزَلْنَا سُورَةً فَمِنَهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِ ءِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فزَادَتْهُمْ ءِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١١٤﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ

(1) تفسير الطبري (9/ 162)، تفسير الألوسي (11/ 139)، زاد المسير (3/ 312)، تفسير القرطبي (5/ 3793).

(2) تفسير الطبري (11/ 124)، أضواء البيان (1/ 107).

كَافِرُونَ ﴿ [التوبة: 124-125].

هذا بخصوص هداية القرآن وأن المؤمنين هم المنتفعون بهديه، وما حوى من آيات، وأما عن الآيات الكونية وأن المؤمنين هم الذين ينتفعون بها ويهتدون بما ترشد إليه من التوحيد، ومن إضافة صفات الكمال لله ﷻ، فقد جاء في مثل قوله سبحانه:

- قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَرَوْنَ إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [النحل: 79].

إن مشهد الطير وهي تحلق في جو السماء ﴿مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ﴾ مشهد عجيب بديع ذهب ما به من عجب: الإلفة والتكرار، ولكن قلب المؤمن هو الذي يشعر بإبداع الخلق والتكوين، ويدرك ما فيه من روعة باهرة تهز المشاعر وتستجيش الضمائر، ويدرك قدرة الله وإبداعه وحكمته فيما أودع فطرة الطير من سنن تمكنها من الطيران، وما أودع الكون من حولها من سنن مناسبة لهذا الطيران⁽¹⁾.

ومثل قوله ﷻ: ﴿الَّذِينَ يَرَوْنَ أَنَّا جَعَلْنَا آلِئَلٍ لِّسَكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿٨٦﴾ [الثلث: 86].

ومشهد الليل الساكن، ومشهد النهار المبصر، خليقان أن يوقظا في الإنسان وجداناً دينياً يجنح إلى الاتصال بالله الذي يقلب الليل والنهار، وهما آيتان كونيتان لمن استعدت نفسه للإيمان⁽²⁾.

وقال ﷻ مبيناً انتفاع المؤمنين بما في السماوات والأرض من

(1) في ظلال القرآن (4 / 2186).

(2) المصدر نفسه (5 / 2668).

آيات، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّمُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾﴾ [الْحَاقَّةِ: 3].

وإذا كان الإيمان سبباً في اهتداء العبد إلى الحق، وانكشاف الحجب أمام بصيرته، فإنه كذلك سبب في هدية الله في العبد وإعانتة وتوفيقه وزيادته هدى إلى الصراط المستقيم، وتثبيتته عليه، وقد جاءت آيات كثيرة تقرر هذه الحقيقة وتؤكددها، منها:

- قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [التغابن: 11].

- وقال عز من قائل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٦١﴾﴾ [يونس: 9].

- وقال تعالى: ﴿بَشِّرْ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِأَقْوَالِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴿٦٧﴾﴾ [إبراهيم: 27].

- وبين ﷺ صفات المؤمنين الذين يهديهم فقال: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١﴾ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾﴾ [البقرة: 2-5].

5. الاهتداء:

من أسباب الهداية المؤدية بالعبد إلى مزيد الهدى والتثبيت على

الصراط المستقيم: اهتداؤه إلى الإيمان، والإتيان بأسبابه، فإذا فعل العبد ذلك، هداه الله بأن خلق فيه المشيئة المستلزمة للفعل، وألهمه ووفقه للطاعات وزاده هدى وتوفيقاً، وأعانه وهو ما لا يقدر عليه إلا الله ﷻ، كما يزيد الذين ظلموا زيادة ضلال⁽¹⁾.

قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا﴾ [مريم: 75]، وهو من باب الجزاء من جنس العمل⁽²⁾.

كما في قوله تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: 152].

- وقوله تعالى: ﴿إِنْ نَصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ﴾ [محمد: 7].

وقد جاءت بعض آيات القرآن الكريم مقررة لهذه الحقيقة زيادة الهدى لمن اهتدى وفق سنته ﷺ في هداية من سلك سبيل الهدى وقصده⁽³⁾.

- قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَءَانَّهُمْ نَفَّوهُمْ﴾ [محمد: 17].

- وقال تعالى: ﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى﴾ [مريم: 76].

وإن إيراد هداية الله مرة بصيغة الماضي، ومرة بصيغة المضارع، يفيد أن هداية الله لعباده بسبب اهتدائهم أمر محقق، وسنة

(1) شفاء العليل ابن القيم، ص: 74.

(2) فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (8 / 206).

(3) السنن الإلهية في الحياة الاجتماعية (1 / 239).

جارية ماضية في الدين من قبل، وهي مستمرة ودائمة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

وقد ورد في تفسير قوله تعالى: ﴿أَهْتَدُوا﴾ معانٍ متعددة دلت عليها أقوال المفسرين فذهب بعضهم إلى أن المقصود من الاهتداء هو الإيمان⁽¹⁾، وجمع بعضهم بينه وبين التصديق بآيات الله، وربط بعضهم بينه بين الاتباع، وذهب فريق آخر إلى معنى ﴿أَهْتَدُوا﴾ أي: قصدوا الهداية وأرادوها⁽²⁾.

وقال الطبري مبيناً اهتداء العبد وهداية الله له: ويزيد من سلك قصد المحبة واهتدى لسبيل الرشد فأمن بربه وصدق بآياته، فعمل بما أمره به، وانتهى عن نهائه عنه هدى على هداه وذلك نظير قوله: ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ [التوبة: 124]⁽³⁾.

إن ترتيب الوقائع في الآية يستوقف النظر، والذين اهتدوا بدأوا هم بالاهتداء، فكافأهم الله بزيادة الهدى، وكافأهم بما هو أعمق وأكمل ﴿وَأَنَّ لَهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾، والتقوى حالة في القلب تجعله أبداً واجفاً من هيبة الله، شاعراً براقبته، خائفاً من غضبه، متطلعاً إلى رضاه، متحرجاً من أن يراه على هيئة أو في حالة لا يرضاها، هذه الحساسية المرهفة هي التقوى، وهي مكافأة يؤتيها من يشاء من عباده حين

(1) تفسير الرازي (21 / 249).

(2) تفسير ابن كثير (4 / 177).

(3) تفسير الطبري (16 / 119) السنن الإلهية (1 / 240).

يهتدون هم، ويرغبون في الوصول إلى رضى الله (1).

6 . الدعاء :

إن من أسباب الهداية حسب سنته ﷺ أن يسأل العبد ربه ذلك لأن ما يستطيعه العبد هو فعل الأسباب، وأما ما تحقق النتيجة وهي الهداية إلى الصراط المستقيم، والإعانة والإلهام والتوفيق والتثبيت على الحق، فهي من شأن الله وفعله، لا يقدر على ذلك إلا هو ﷻ، فالعبد إذا فعل الأسباب التي يقدر عليها سأل الله ما لا يقدر عليه وهو الهداية، كمن يتعاطى العلاج للشفاء من المرض، ثم يسأل الله ﷻ الشفاء لأنه هو الشافي والدواء إنما هو مجرد سبب . والأسباب لا تؤدي إلى نتائجها إلا بمشيئة الله . ووفق قدر خاص لكل شيء منه سبحانه (2).

إن سؤال العبد لله ﷻ بالهداية هو من الدعاء الذي وعد عليه بالاستجابة، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: 186] .

- وقال تعالى: ﴿أَدْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: 60].

ولما كان سؤال الله تعالى الهداية إلى الصراط المستقيم من أجل المطالب، ونيله أشرف المواهب، فقد علم ﷻ عباده . في سورة الفاتحة . كيفية سؤاله وأمرهم أن يقدموا بين يديه حمده والثناء عليه وتمجيده، ثم ذكر عبوديتهم، وتوحيدهم، هاتان وسيلتان إلى

(1) في ظلال القرآن (6 / 3294).

(2) السنن الإلهية (1 / 241).

مطلوبهم، توسل إليه بأسمائه وصفاته وتوسل إليه بعبوديتهم، وهاتان الوسيلتان لا يرد معهما الدعاء⁽¹⁾.

وهذا الدعاء يتضمن طلب الهداية ممن هو قادر عليها، وهي بيده إن شاء أعطاها عبده، وإن شاء منعه إياها، والهداية هي معرفة الحق والعمل به، فمن لم يجعله الله عالماً بالحق عاملاً به لم يكن له سبيل إلى الاهتداء، فهو ﷺ المتفرد بالهداية الموجبة للاهتداء التي لا يتخلف عنها وهو جعل العبد مريداً للهدى، محباً له، مؤثراً له، عاملاً به، فهذه الهداية ليست إلى ملك مقرب ولا إلى نبي مرسل⁽²⁾.

7. الاعتصام بالله:

ومن بين الأسباب التي رتب الله ﷻ عليها الهداية لعباده، حسب سنته تعالى في الهداية والإضلال: الاعتصام بالله وهو الامتناع بالله والالتجاء والفرع إليه والتوكل عليه في دفع شرور الكفار التي تؤدي بالمؤمنين إلى الضلال الذي يريده الكفار من المؤمنين⁽³⁾ عامة في قوله: ﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا﴾ [النساء: 89]. واليهود خاصة كما ورد في قوله: ﴿قُلْ يَتَأَهَّلَ الْكِتَابَ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَن ءَامَنَ تَبِعُونَهَا عِوَجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِعَفِيفٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [آل عمران: 99].

فقد بين ﷺ أن الاعتصام بالله من التمسك بدينه والتوكل هو

(1) مدارج السالكين (1 / 23). لابن القيم.

(2) شفاء العليل، ص: 116.

(3) مدارج السالكين (1 / 461)، تفسير الرازي (8 / 174).

العمدة في الهداية إلى الصراط المستقيم والعمدة في مباحدة الغواية،
والوسيلة إلى الرشاد وطريق السداد⁽¹⁾.

قال تعالى: ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَرِيسَالُهُ وَمَنْ يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ [آل عمران: 101].

فقوله: ﴿فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [آل عمران: 101] جواب الشرط ولكونه ماضياً مع ﴿قد﴾ أفاد الكلام تحقق الهدى حتى كأنه حصل وأن الهداية حاصلة حسب سنته سبحانه لا محالة⁽²⁾.

ونظراً لأهمية الاعتصام فقد جاءت عدة آيات في كتاب الله تدعو المؤمنين وتذكرهم بالاعتصام بالله وبعهده من ذلك قوله ﷺ: ﴿فَأَقِمْوُا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ [الحج: 78].

وقوله تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: 103].

8 . الاتباع والطاعة :

ومن أسباب الهدى حسب سنته ﷺ في الهداية والضلال الاتباع، وهو السير وفق الشرع ومقتضاه، وإطراح كل شيء يخالف هدى الله ﷻ، وطاعة الله في طاعة رسول الله ﷺ، فهو المبلغ عن الله ﷻ، وبهذا فإن الاتباع يشمل الالتزام بما ورد في كتاب الله

(1) تفسير ابن كثير (1 / 378) السنن الإلهية (1 / 246).

(2) السنن الإلهية في الحياة الاجتماعية (1 / 246).

تعالى، وسنة رسوله ﷺ، من عقائد وأحكام وأوامر ونواه وآداب وأخلاق، وكل ما يرشد إليه كتاب الله ﷻ وسنة رسوله ﷺ، فالاتباع ليس مجرد شعار يرفع، وإنما هو تحقيق معناه في قلب المسلم وجوارحه وأفكاره⁽¹⁾.

ونجد القرآن، والسنة المطهرة، يركزان على الاتباع ويعتبرانه مناط بالهداية، والطريق الموصلة إلى السعادة والنجاح والفلاح في الدنيا والآخرة، ومن أعظم الدلائل على ذلك أن الله ﷻ قد بين أهمية الاتباع، وأثره في الوصول إلى الهدى وتجنب الضلال عندما خلق آدم وأنزله إلى الأرض، قبل أن يرسل أنبياءه ورسله، فكان ذلك دليلاً حاسماً على ما للاتباع من أهمية ومكانة في الوصول إلى الهداية والنجاة⁽²⁾.

- قال تعالى: ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ ﴿١٧٨﴾ [البقرة: 38].

- قال تعالى: ﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾ [طه: 123].

وقد ربط الله ﷻ بين طاعته واتباع نبيه ﷺ وبين الهداية فجعل الطاعة والاتباع سبباً للهداية والرشاد.

- قال تعالى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا

(1) السنن الإلهية في الحياة الاجتماعية (1 / 348).

(2) المصدر نفسه (1 / 248).

أَبْلَغُ أَلْمِيثِ ﴿٥٤﴾ [الثور: 54].

فأخبر جل ثناءه أن الهداية إلى المنهج القويم المؤدي إلى الفوز والفلاح في طاعة الرسول لا في غيرها، فإنه متعلق بالشرط فينتفي بانفتائه، وليس عليه إلا البلاغ والبيان⁽¹⁾.

- وقال تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴿١٥٦﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٦٦﴾ [المائدة: 15 . 16].

بَيِّنٌ ﴿١٦٦﴾ في هذه الآية الكريمة أن من اتبع كتاب الله وهو ما رضىه لعباده، فإن الله ﷻ يكافئه على ذلك بثلاثة أمور:

أولها: فهو يهدي من اتبعه سبل السلام الطرق التي يسلم بها في الدنيا والآخرة من كل ما يرديه ويشقيه⁽²⁾، فاتباع هذا القرآن يسكب السلام في الحياة كلها، سلام الفرد سلام الجماعة، سلام العالم، سلام الضمير، سلام العقل، سلام الجوارح، سلام البيت، سلام الأسرة، سلام المجتمع، سلام البشر والإنسانية، السلام مع الحياة ومع الكون، والسلام مع الله رب الكون والحياة والسلام الذي تجده البشرية ولم تجده إلا في هذا الدين وإلا في منهجه ونظامه وشريعته ومجتمعه الذي يقوم على عقيدته وشريعته، حقاً إن الله يهدي بهذا الدين الذي رضىه طرق السلام كلها⁽³⁾.

(1) في ظلال القرآن (4 / 2528).

(2) تفسير المنار محمد رشيد رضا (6 / 350).

(3) في ظلال القرآن (2 / 863).

الثاني: أنه يخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه، أي يخرجهم من الكفر إلى نور الإيمان بتوفيقه وهدايته لهم⁽¹⁾، لأن الجاهلية كلها ظلمات، ظلمة شبهات وخرافات، وحيرة وقلق وانقطاع عن الهدى، ووحشة واضطراب قيم.

الثالث: الهداية إلى الصراط المستقيم وهو الطريق الموصل إلى المقصد والغاية من الدين في أقرب وقت، لأنه طريق لا عوج فيه ولا انحراف، فيبطئ سالكه أو يضل في سيره، وقد جعل الله ﷻ اتباع رسوله فيما جاء به سواء كان مبيناً لمجمل القرآن، أو مقيداً لمطلقه، أو مخصصاً لعامه أو منشيءً لأحكام جديدة لم ترد في القرآن، جعل ذلك سبباً من أسباب الهداية⁽²⁾.

- قال تعالى: ﴿قُلْ يَتَّيِبُهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأَمِيِّ الَّذِي يُوْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ، وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: 158].

وأخبر النبي ﷺ أن التمسك بسنته عصمة من الزيغ والضلال والفتن، فقال: «فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة»⁽³⁾.

وقال تعالى على لسان نبيه محمد ﷺ مبيناً أنه عليه الصلاة

(1) السنن الإلهية في الحياة الاجتماعية (1 / 250).

(2) المصدر نفسه (1 / 250).

(3) سنن الترمذي (5 / 44) حديث حسن صحيح.

والسلام لا يتبع أهواء الكافرين، لأن في ذلك انحراف عن الصراط المستقيم وسبيل إلى الضلال:

- قال تعالى: ﴿قُلْ لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذَا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ [الأنعام: 56] ، أي: لا أتبعكم على ما تدعونني إليه لا في العبادة ولا في غيرها من الأعمال لأنها مؤسسة على الهوى، وليست على شيء من الحق والهدى، فإذا فعلت ذلك فقد تركت محجة الحق وسرت على غير هدى فصرت ضالاً مثلكم وخرجت من عداد المهتدين⁽¹⁾.

- وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا بُيِّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصَلِّهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: 115] ، أي: ومن سلك غير طريق الشريعة التي جاء بها الرسول ﷺ فصار في شق والشرع في شق، وذلك عن عمد منه بعد ما ظهر له الحق وتبين له واتضح له ويتبع غير سبيل المؤمنين، هذا ملازم للصفة الأولى: ﴿نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصَلِّهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: 115] أي: إذا سلك هذا الطريق جازيناه على ذلك بأن نحسها في صدره ونزينها له استدراجاً له وجعل النار مصيره في الآخرة، لأن من خرج عن الهدى لم يكن له طريق إلا إلى النار يوم القيامة⁽²⁾.

ومن هذه النصوص وغيرها يتبين أن الاتباع مجبلة للهداية والرشاد، وعدم الاتباع موقع في الزيغ والضلال والهلاك⁽³⁾.

(1) تفسير المراغي (7 / 141).

(2) تفسير ابن كثير (1 / 554-55).

(3) السنن الإلهية في الحياة الاجتماعية (1 / 253).

9 الخشية :

ومن أسباب الهداية حسب سنته ﷺ، خشية الله ﷻ والخوف منه، فإن خشيته ﷻ تجعل صاحبها أكثر من غيره استعداداً للتذكر إذا وعظ وذكر، وللاعتبار بما يرى من آيات الله في الكون والحياة وما تجري به سنته في أحداث التاريخ، وللانتفاع بالإنذار بعذاب الله في الدنيا والآخرة، والاهتداء إلى الحق إذا هدي إليه وآيات القرآن الكريم توضح هذه الحقائق أكمل توضيح، حتى أنها لتصور لنا ما يعترى الخائفين من الله إذا سمع آيات الهدى تتلى عليهم:

- قال تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَابًا نَقَّشَ مِنْهُ جُلُودَ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَىٰ اللَّهِ يَهْدِي بِهِ ۗ مَنْ يَشَاءُ ۗ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَآ لَّهُ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾﴾ [الزمر: 23].

- وقال تعالى بعد أن ساق قصة فرعون وما آل إليه أمره من النكال والهلاك قال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَنْ يَخْشَىٰ ﴿٦٦﴾﴾ [التازعات: 26] فالذي يعرف ربه ويخشاه هو الذي يدرك ما في حادث فرعون من العبرة لسواه، أما الذي لا يخشى ربه فبينه وبين العبرة حاجز، وبينه وبين العظة حجاب⁽¹⁾.

- ويقول الله ﷻ عن تأثير خشيته في قبول التذكرة: ﴿طه ﴿٦١﴾ مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ ﴿٦٢﴾ إِلَّا تَذَكُّرًا لِّمَنْ يَخْشَىٰ ﴿٦٣﴾﴾ [طه: 1-3].

- وقال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾﴾ [ق: 45].

(1) في ظلال القرآن (6 / 3816).

- وقال تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَاوِيٌّ وَلَا سَفِيحٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ ﴿٥١﴾ [الأنعام: 51].

فالذي يخشى يتذكر حين يذكر، ويتقي ربه بأداء فرائضه واجتناب محارمه، خشية عقاب الله ووعيده⁽¹⁾، وهذه ألوان من الهداية يؤتيه الله سبحانه من يخشاه، وقد جاء التصريح بترتيب الهداية على خشية الله دون من سواه.

قال تعالى: ﴿فَلَا تَحْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلَا تَمَنَّيْ عَلَيْهِمُ وَلَكِنَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: 150].

فالهدى إنما يكون نتيجة لخشية الله وحده دون من سواه، لأن ذلك يدفع من يخشى الله إلى اتباع أوامره واجتناب نواهيه، دون النظر إلى إنكار غيره ممن لا يخشاهم من البشر فطريق الهدى هو خشية الله وعدم الخشية ممن سواه⁽²⁾.

10 . الإنباء :

ومن أسباب الهداية التي جعلها الله سبباً في زيادة الهدى لأصحابها، إنباء العبد إلى الله، إنباء عبودية ومحبة وهي تتضمن أربعة أمور: محبته والخضوع له، والإقبال عليه والإعراض عما سواه⁽³⁾.

- قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ

(1) في ظلال القرآن (5 / 2327)، تفسير الطبري (16 / 137).

(2) تفسير المراغي (2 / 18).

(3) السنن الإلهية (1 / 258).

رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ ﴿١٣﴾ ﴿غافر: 13﴾.

- وقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَرَزَقْنَاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَالْأَرْضِ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رِوْاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبَصَّرَةٌ وَذَكَرْنِي لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ﴿٨﴾﴾ [ق: 6-8].

وفي قوله تعالى: ﴿تَبَصَّرَةٌ وَذَكَرْنِي لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ﴿٨﴾﴾ [ق: 8] دلالة على الإنابة سبب في الاعتبار لكل من تحققت فيه هذه الصفة، وأن هذه الصفة لتؤهلهم لثواب الله في الدنيا والآخرة فكما يثيب الله ﷻ عباده المنيبين إليه بالجنة في الآخرة فإنه سبحانه يثيبهم أيضاً بالهداية في الدنيا حسب سنته في الهداية والإضلال فيهددهم ويوفقههم إلى الرشاد وإصابة الحق، ويخلصهم لعبادته، والعمل بطاعته واجتناب ما حرمه ويوفقههم إلى تصديق ما جاء به الرسول عليه الصلاة والسلام واتباعه فيما جاء به⁽¹⁾ وفي تقرير ذلك.

- قال تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أُنَابَ ﴿٧٧﴾﴾ [الزهد: 27].

- وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطُّغْيَاتِ أَنْ يَعْْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿٧٧﴾ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿١٧-١٨﴾﴾ [الزمر: 17-18].

- وقال تعالى: ﴿﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا

(1) السنن الإلهية في الحياة الاجتماعية (1 / 261).

وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِمُوا الذِّينَ وَلَا تُلْفِرُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ ﴿١٣﴾ [الشورى: 13].

- وأما جزاء المنيبين في الآخرة فقد قال تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَنْ حَتَّى الرَّحْمَنِ بِالْعِيبِ وَاَجَاءَ يِقْلَبُ مُنِيبٍ ﴿٣٣﴾ [ق: 31 . 33].

- ولذلك فقد أمر الله سبحانه عباده بالإجابة كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾ وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٥﴾ [الزمر: 53 . 54].

- وكما في قوله تعالى أيضاً: ﴿فَأَقْذِرْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا يَبْدِيلُ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينَ الْقَيُّمُ وَلَكِن مَّنْ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ [الروم: 30 . 31]^(١).

11 . البراء من الكافرين :

ومن الطاعات التي خصص الله ﷻ ذكرها وجعلها سبباً في زيادة هدى أصحابها، البراءة من الكافرين بالبعد عنهم والخلاص منهم والعداوة لهم وعدم موالاتهم بالتقرب إليهم أو إظهار الود لهم بالأقوال أو الأفعال أو النوايا⁽²⁾، قال تعالى: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ

(1) السنن الإلهية في الحياة الاجتماعية (1 / 261).

(2) المصدر نفسه (1 / 264).

بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُؤَادِبُ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ
 أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ
 الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيَدْخُلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ
 خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ
 حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾ [المجادلة: 22].

وليس البراء من الكافرين هم مجرد البراء من أشخاصهم، بل هو أيضاً البراء من أفعالهم وبغضها، وما ذلك إلا لأن ولاءهم هو سبيل الضلال أو الضلال بعينه كما جاء في قوله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصْرَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ يَتَوَلَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥١﴾ [المائدة: 51].

- وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَبِغْيَةٌ تَمْتَلِكُونَ كَسَادَهَا وَمَسْكَنٌ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٤﴾ [التوبة: 24].

والبراء من الكافرين يجب صاحبه الوقوع في أعمال المعصية والضلال التي يقترفونها، ويجنبه التشبه بأعمالهم التي تؤدي به إلى الضلال، ثم إن البراء منهم تجنبه محاولتهم ثنيه عن إيمانه وهداه، قال تعالى: ﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا﴾ [النساء: 89]⁽¹⁾.

12 . الجهاد:

ومن أسباب الهداية الجهاد في سبيل الله، فقد رتب ﷺ الهداية

(1) السنن الإلهية في الحياة الاجتماعية (1 / 264).

على الجهاد، وجعله سبباً من أسباب زيادة الهدى، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الغنكبوت: 69]. علق سبحانه الهداية بالجهاد، فأكمل الناس هداية أعظمهم جهاداً، ومراتب الجهاد أربع:

أ. جهاد النفس:

إحداها: أن يجاهدها على تعلم الهدى، ودين الحق الذي لا فلاح لها، ولا سعادة في معاشها ومعادها إلا بها، ومتى فاتها علمه، شقت في الدارين.

الثانية: أن يجاهدها على العمل به بعد علمه، وإلا فمجرد العلم بلا عمل إن لم يضرها لم ينفعها.

الثالثة: أن يجاهدها على الدعوة إليه، وتعليمه من لا يعلمه، وإلا كان من الذين يكتمون ما أنزل الله من الهدى والبيئات ولا ينفعه علمه ولا ينجيهِ من عذاب الله.

الرابعة: أن يجاهدها على الصبر على مشاق الدعوة إلى الله، وأذى الخلق ويتحمل كل ذلك لله.

فإذا استكمل هذه المراتب الأربع، صار من الربانيين، فإن السلف مجمعون على أن العالم لا يستحق أن يُسمى «ربانياً» حتى يعرف الحق، ويعمل به، ويعلمه، فمن علم وعمل وعلم فذاك الذي يدعى عظيماً في ملكوت السماوات⁽¹⁾.

(1) فقه الجهاد للشيخ القرضاوي (1 / 140).

ب . جهاد الشيطان مرتبتان :

إحدهما: جهاده على دفع ما يأتي إلى العبد من الشبهات والشكوك الفادحة في الإيمان .

الثانية: جهاده على دفع ما يُلقى إليه من الإيرادات الفاسدة والشهوات .

فالجهد الأول: يكون بعدة اليقين، والثاني: يكون بعدة الصبر .

- قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ يَاْمُرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة:24]، فأخبر أن أمامه الدين، إنما تُنال بالصبر واليقين، فالصبر يدفع الشهوات والإرادات الفاسدة، واليقين يدفع الشكوك والشبهات .

ج . جهاد الكفار والمنافقين أربع مراتب :

وأما جهاد الكفار والمنافقين، فأربع مراتب: بالقلب، واللسان، والمال، والنفس، وجهاد الكفار أخصُّ باليد، وجهاد المنافقين أخصُّ باللسان .

س . جهاد الظلمة والفساق ثلاث مراتب :

وأما جهاد أرباب الظلم، والبدع، والمنكرات، فثلاث مراتب:

الأولى: باليد إذا قدر، فإن عجز، انتقل إلى اللسان، فإن عجز، جاهد بقلبه، فهذه ثلاثة عشر مرتبة من الجهاد: «ومن مات

ولم يغز، ولم يحدث نفسه بالغزو، مات على شعبة من النفاق»⁽¹⁾، ولا يتمُّ الجهاد إلا بالهجرة، ولا الهجرة والجهاد إلا بالإيمان، والزاجون رحمة الله هم الذين قاموا بهذه الثلاثة قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: 218].

وكما أن الإيمان فرض على كلِّ أحد، ففرض عليه هجرتان في كل وقت: هجرة إلى الله ﷻ بالتوحيد، والإخلاص والإنابة والتوكل، والخوف، والرجاء، والمحبة، والتوبة. وهجرة إلى رسوله بالمتابعة، والانقياد لأمره، والتصديق بخبره، وتقديم أمره وخبره على أمر غيره وخبره «فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله، فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها، أو امرأة يتزوجها، فهجرته إلى ما هاجر إليه»⁽²⁾، وفرض عليه جهاد نفسه في ذات الله، وجهاد شيطانه، فهذا كله فرض عين، لا يتوب فيه أحد عن أحد، وأما جهاد الكفار المنافقين، فقد يُكتفى فيه ببعض الأمة إذا حصل منهم مقصود الجهاد⁽³⁾.

ثالثاً: الضلال ومراتبه:

الضلال: ضد الهدى، وضللت بعيري: إذا كان معقولاً فلم تهتد لمكانه، وضل عني: ضاع، وضلته: أنسيته.

(1) مسلم في الإمارة رقم 1910.

(2) فقه الجهاد للقرضاوي (1 / 41) زاد المعاد لابن القيم (3 / 1205).

(3) زاد المعاد لابن القيم (3 / 1205).

ويقال لكل عدول عن المنهج عمداً، أو سهواً، يسيراً كان أو كثيراً: ضلال، فإن الطريق المستقيم الذي هو المرتضى صعب جداً⁽¹⁾، وإضلال الله للإنسان على وجهين:

إحدهما: أن يكون سببه وهو أن يضل الإنسان فيحكم الله عليه بذلك في الدنيا، ويعدل به عن طريق الجنة إلى النار في الآخرة.

الثاني: من إضلال الله: وهو أن الله تعالى وضع جبلة الإنسان على هيئة إذا راعى طريقاً محموداً كان أو مذموماً ألفه واستطابه وتعسر عليه صرفه وانصرافه⁽²⁾.

والمقصود بإضلال الله للعبد هو خذلانه وعدم توفيقه وإعانتة وعدم خلق المشيئة المستلزمة للهداية⁽³⁾.

والله ﷻ يجعل ذلك في عباده ويخلقه فيهم بأسباب تكون من قبلهم، فهم إذا سدوا على أنفسهم باب الهدى إرادة منهم واختياراً، سده عليهم اضطراراً، فخلاهم وما اختاروا لأنفسهم وولاهم ما تولوا، فيكون ذلك عقوبة لهم، كما يعاقبهم في الآخرة بدخولهم النار⁽⁴⁾.

ومن رحمة الله بعباده، أن ما يفعله الله ﷻ من إضلال بعض

(1) السنن الإلهية في الحياة الاجتماعية (1 / 100).

(2) شفاء العليل، ص: 173، 196، السنن الإلهية (1 / 101).

(3) المصدر والرقم ذاته.

(4) السنن الإلهية (1 / 101)، شفاء العليل، ص: 186، 209.

عباده بالطبع والغشاة والختم وغير ذلك، لا يفعله بالعبد لأول وهلة حين يأمره بالإيمان ويبيئه له، وإنما يفعله به بعد تكرار الدعوة به سبحانه، والتأكيد في البيان والإرشاد وتكرار الإعراض منه، والمبالغة في الكفر والعناد، فحينئذ يطبع الله على قلوب هؤلاء العباد، ويختم عليهم، فلا يقبل الهدى بعد ذلك، والإعراض والكفر الأول لم يكن معه ختم وطبع، بل كان اختياراً، فلما تكرر منهم صار طبيعة وسجية⁽¹⁾.

فتأمل هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦٦﴾ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشْوَةً وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾﴾ [البقرة: 6، 7].

1 - حرية العبد في اختياره للهدى والضلال:

الأعمال التي يقوم بها الإنسان وفقاً لإرادته الحرة واختياره ورضاه، فالإنسان كائن عاقل مدرك مفكر، ويتميز عن غيره من المخلوقات بحرية الاختيار.

- قال تعالى: ﴿أَلَمْ نَرَأَنَّكَ اللَّهُ يَسْجُدُ لَكُمْ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالْدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴿١٨﴾﴾ [الحج: 18].

فهذه الكائنات جميعها لا حرية لها ولا اختيار، بينما الإنسان

(1) السنن الإلهية في الحياة الاجتماعية (1 / 102).

الذي يعمل بمحض إرادته الحرة ومشيبته المختارة، قد يطيع وقد يعصي، وأكد القرآن أن الإنسان الذي تحمل الأمانة والتكليف زوده الله بقوى وملكات واستعدادات لتحقيق تلك الخلافة ولأداء الأمانة، فخلق لديه الاستعداد للخير والشر، للتقوى والفجور، والهدى والضلال، ومنحه العقل الذي يميز به بين الحق والباطل، والخير والشر، ووهبه القدرة التي لا يمكن عن طريقها أن يحق الحق ويبطل الباطل، أن يأتي الخير ويدع الشر، وأنزل الله الكتب، وأرسل الرسل لهداية الإنسان وإرشاده لمنهج الحق والخير، وجعل في الإنسان قوة ذاتية واعية مدركة يمكن أن يستخدمها في تزكية النفس وتطهيرها، وتنمية استعداد الخير فيها وتغليبه على استعداد الشر، فيفلح الإنسان بهذا، وقد يظلم هذه القوة ويغطيها ويضعفها فيخيب، قال تعالى:

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ رَزَقْنَا ﴿١٠﴾ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّهَا ﴿١١﴾﴾ [الشمس: 9، 10].

وقد نطق القرآن الكريم، بإسناد الفعل إلى العبد في الكثير من آياته، مثل قوله تعالى: ﴿جَزَاءُ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: 17].

- قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴿١٦﴾﴾ [فصلت: 46].

وقال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهينَةٌ ﴿٣٨﴾﴾ [المذثر: 38].

وأثبت القرآن للعبد في غير ما آية منه في مشيئة الاختيار، فقال تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِنَّمَا شَاكَرًا وَإِنَّمَا كَفُورًا ﴿٣٤﴾﴾ [الإنسان: 3].

إن الإنسان حر، لقد زوده الله بالعقل والإرادة، يختار ما يراه

من حق أو باطل، ويفعل ما يروق له من خير أو شر، فهو مزود بوسائل الإدراك، يدرك ما في الأشياء من قيم ويحكم عليها ويختار، وهو بالخيار أن يسلك طريق الحق والخير فيكون شاكراً، أو يعوج في طريقه فيجرح نحو الشر والباطل، فيكون كفوراً⁽¹⁾.

فالإنسان حر في دائرة أعماله الاختيارية والمرتبطة بالتكليف والمسؤولية، وهذه الحرية يؤكدتها ما يلي:

أ - واقع حياة الإنسان الذي يشعر بالفرق الواضح بين الأعمال الاختيارية وبين الأعمال التي تقع عليه اضطراراً.

ب - كما يؤكدتها العقل الذي يقضي بأن المسؤولية والتكليف، لا بد أن تكون منوطة باستطاعة الإنسان على الفعل أو الترك لأن من لا يملك هذه الاستطاعة فلا يصح عقلاً أن تتوجه إليه المسؤولية أصلاً.

ج - وإضافة إلى ذلك لو لم يكن الإنسان مختاراً، لما كان ثمة فرق بين المحسن والمسيء، إذ أن كلاهما مجبر على ما قاله، ولبطل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لا فائدة لهما، حيث أن الإنسان مسلوب الإرادة، ولما كان ثمة معنى لتكليف الله للعباد، لأن تكليفه إياهم مع سلب اختيارهم يتنافى مع العدل الإلهي الذي أثبتته لنفسه، بل لو كان الإنسان مجبراً على أفعاله، لضاعت فائدة القوانين، ولبطل معنى الجزاء من الثواب والعقاب.

د - وقبل هذا كله، جاءت النصوص الشرعية تنسب العمل

(1) العقيدة الإسلامية د. أحمد محمد جلي، ص: 363.

والاختيار إلى الإنسان، وما يكتسبه نتيجة لجهده، وثبت الجزاء بالجنة لمن أطاع، والنار لمن عصى⁽¹⁾.

- قال تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِّنْ مُّصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ ﴿٣٥﴾ [الشورى: 30].

- وقال تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ ﴿٤١﴾ [الزوم: 41].

- وقال تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ [الكهف: 29].

- وقال تعالى: ﴿لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ﴾ ﴿٧٨﴾ [التكوير: 28].

ولكن هذه المشيئة الإنسانية محدودة مرتبطة بمشيئة الله المطلقة وتابعة لها، إذ أن الإنسان يعمل أعماله الاختيارية ويمارس حريته في العمل داخل دائرة صغرى تقع ضمن دائرة كبرى، هي نطاق النظام الكوني العام، إذ أن أعماله مهما كانت، واختياره مهما كان خيراً أم شراً حقاً أم باطلاً، لن يخرج في أدائه الأخير عن السنن الكونية التي وضعها الله في الكون، وتقوم عليها قوانين الحياة البشرية ﴿لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ﴾ ﴿٧٨﴾ ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿٧٩﴾ [التكوير: 28 . 29].

فمشيئة الله ليست منفصلة عن مشيئة الله تعالى، ولا مستقلة عنها، بل أن الله قد شاء للإنسان أن يختار أحد الطريقتين: طريق

(1) العقيدة الإسلامية د. أحمد جلي، ص: 365.

الهداية وطريق الضلال، فإن اختار الطريق الأول، وفي نطاق المشيئة الإلهية، وإذا اختار الثاني ففي نطاقها أيضاً⁽¹⁾.

2 - التوفيق بين مشيئة الله ومشيئة العبد للهدى والضلال:

أسند الله ﷻ الهداية والإضلال إلى مشيئته سبحانه في كثير من الآيات، منها قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾ [النحل: 93].

- وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ إِيضَاتٍ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٤﴾﴾ [إبراهيم: 4].

- وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ﴾ [الزمر: 36 . 37].

والواقع أن هذه وأمثالها نصوص عامة ولا بد أن تحمل على النصوص المقيدة، فليست مشيئة الله للهداية والإضلال تسير جزافاً بدون حكمة، أو بدون سنة ماضية في هذا الشأن وذلك لأنه توجد هناك إلى جانب هذه الآيات العامة آيات أخرى تقيد مشيئة الله في الهداية والإضلال بأحوال خاصة وأسباب معينة وهذه الآيات المقيدة تبين لنا من يشاء الله تعالى هدايته ومن يشاء إضلاله وهذا إجمال يحتاج إلى تفصيل.

(1) العقيدة الإسلامية د. أحمد جلي، ص: 365.

لقد ربط الله ﷻ كثير من الآيات بين مشيئة العبد للهدى، والضللال ومشيئته ﷻ لهما، والله سبحانه لا يشاء إلا العدل والرحمة وهذا الذي عرفه رسل الله عليهم الصلاة والسلام ولهذا قال هود لقومه: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [هود:56]. فأخبر عن عموم قدرة الله ونفوذ مشيئته وتصرفه في خلقه كيف يشاء، ثم أخبر أن هذا التصرف والحكم على صراط مستقيم أي سبحانه وإن كانت قدرته تنالهم بما يشاء فإنه لا يشاء إلا العدل⁽¹⁾.

فهداية الله سبحانه لعباده أو إضلالهم إنما تقوم على أساس ترتيب المسببات على أسبابها والنتائج على مقدماتها، كما دل على ذلك كثير من الآيات ومنها:

- قوله تعالى: ﴿وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ﴾ [إبراهيم: 27].

- وقوله تعالى: ﴿وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ [الشورى: 13].

بين ﷻ في الآية الأولى إن سبب إضلاله لبعض عباده هو الظلم، وبين في الآية الثانية أن سبب هدايته لبعض عباده هو إنابتهم إليه⁽²⁾.

ومن تدبر القرآن تبين له أن عامة ما يذكره الله من خلق الكفر والمعاصي يجعله جزاء لذلك العمل كقوله تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا

(1) السنن الإلهية (1/ 105).

(2) المصدر نفسه (1/ 106).

حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾ [الأنعام: 125].

- وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: 5].

- وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ يُجَلِّ وَأَسْتَفْتَى ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحَسَنَى ﴿٩﴾ فَسَيَلْبَسُهَا لِلْعُسْرَى ﴿١٠﴾﴾ [الليل: 8 - 10].

وهذا وأمثاله بذلوا فيه أعمالاً عاقبهم الله بها على فعل محذور وترك مأمور، وتلك الأمور إنما خلقت لكونهم لم يفعلوا ما خلقوا له، ولا بد لهم من حركة وإرادة فلما لم يتحركوا بالحسنات حركوا بالسيئات عدلاً من الله، حيث وضع ذلك في محله القابل له، وهو القلب الذي لا يكون إلا عاملاً فإذا لم يعمل الحسنة استعمل في السيئة: نفسك إن لم تشغلها شغلتك⁽¹⁾.

يقول الشيخ محمد رشيد رضا عند قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَتْ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [يونس: 100] أي: وما كان لنفس ولا من شأنها فيما أشير إليه من استقلالها في أفعالها ولا مما أعطاه الله من الاختيار فيما هداه من النجدين وما ألهمها من فجورها وتقواها الفطريين أن تؤمن إلا بإرادة الله ومقتضى سنته في استطاعة الترجيح بين المتعارضين، فهي مختارة في دائرة الأسباب والمسببات ولكنها غير مستقلة في اختيارها أتم الاستقلال بل مقيدة بنظام السنن والأقدار، فالمنفي هو استطاعة الخروج عن هذا النظام العام لا الاستطاعة الخاصة الموافقة له⁽²⁾.

(1) الحسنة والسيئة لابن تيمية، ص: 95. 94.

(2) تفسير المنار (11 / 484).

3 - التوفيق بين القدر الأزلي واختيار الهدى والضلال :

ومن مراجعة مجموعة النصوص التي تذكر الهدى والضلال، والتنسيق بين مدلولاتها جميعاً، يخلص لنا طريق واحد بعيد عن ذلك الجدل الذي أثاره المتكلمون من الفرق الإسلامية والذي أثاره اللاهوت المسيحي والفلسفات المتعددة حول قضية القضاء والقدر عموماً: إن مشيئة الله سبحانه التي يجري بها قدره في الكائن الإنساني هي أن يخلق هذا الكائن باستعداد مزدوج للهدى والضلال، وذلك مع إيداع فطرته إدراك حقيقة الربوبية الواحدة والاتجاه إليها، ومع إعطائه العقل المميز للضلال والهدى، ومع إرسال الرسل بالبينات لإيقاظ الفطرة إذا تعطلت وهداية العقل إذا ضل . . ولكن يبقى بعد ذلك كله ذلك الاستعداد المزدوج للهدى والضلال الذي خلق الإنسان به، وفق مشيئة الله التي جرى بها قدره، كذلك اقتضت هذه المشيئة أن يجري قدر الله بهداية من يجاهد للهدى، وأن يجري قدر الله كذلك لإضلال من لا يستخدم ما أودعه الله من عقل، وما أعطاه من أجهزة الرؤيا والسمع في إدراك الآيات الماثورة في صفحات الكون، وفي رسالات الرسل، الموحية للهدى، وفي كل الحالات تتحقق مشيئة الله ولا يتحقق سواها، ويقع ما يقع بقدر الله لا بقول سواه، وما كان الأمر ليكون هكذا إلا أن الله شاء هكذا، وما كان شيء ليقع إلا أن يوقعه قدر الله، فليس في هذا الوجود مشيئة أخرى تجري وفقها الأمور، كما أنه ليس هناك قوة إلا بقدر الله ينشيء الأحداث . . وفي إطار هذه الحقيقة الكبرى يتحرك الإنسان بنفسه، ويقع له ما يقع من الهدى والضلال أيضاً، وهذا هو التصور الإسلامي إلى تنشئة مجموعة النصوص القرآنية مقارنة

متناسقة، حين لا تؤخذ فرادى وفق أهواء الفرق والنحل، وحين لا يوضع بعضها في مواجهة البعض الآخر، على سبيل الاحتجاج أو الجدل⁽¹⁾.

رابعاً: أسباب الضلال:

للضلال أسباب كثيرة وعوامل حسبما تجري به سنة الله في عباده من ترتيب النتائج على مقدماتها واتباع المسببات لأسبابها، وقد تكون هذه الأسباب والعوامل فكرية، أو نفسية، أو أخلاقية، وقد ترجع إلى التأثير بالوراثة أو البيئة، أو النشأة أو طبيعة الحياة التي يحيها صاحبها أو غير ذلك من الأسباب والعوامل والتي من أهمها:

1. عدم استخدام الإنسان مواهبه في التفكير في آيات الله:

- قال تعالى: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمُّ بِكُمْ عُنَىٰ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٧١﴾ [البقرة: 171].

فهم صم لا يسمعون الحق، وعمي لا ينظرون إلى آيات الله في أنفسهم وفي الآفاق حتى يتبين لهم الحق⁽²⁾.

- وقال تعالى: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْلَمُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾ [الفرقان: 44].

فشبه أكثر الناس بالأنعام والجامع بين النوعين التساوي في عدم قبول الهدى والانقياد له وجعل الأكثرين أضل سبيلاً من

(1) في ظلال القرآن (3 / 1400).

(2) شفاء العليل، ص: 199، 206 السنن الإلهية في الحياة الاجتماعية (1 / 114).

الأنعام، لأن البهيمة يهديها سائقها فتتهدي وتتبع الطريق فلا تحيد عنها يميناً ولا شمالاً والأكثرون يدعوهم الرسل ويهدونهم السبيل فلا يستجيبون، ولا يهتدون ولا يفرقون بين ما يضرهم وبين ما ينفعهم والأنعام تفرق بين ما يضرها من النبات والطريق فتجتنبه وما ينفعها فتؤثره، والله تعالى لم يخلق للأنعام قلوباً تعقل بها ولا ألسنة تنطق بها، وأعطى ذلك لهؤلاء ثم لم ينتفعوا بما جعل لهم من العقول والقلوب والألسنة، والأسماع والأبصار، فهم أضل من البهائم فإن من لا يهتدي إلى الرشd وإلى الطريق - مع الدليل إليه - أضل وأسوأ حالاً ممن لا يهتدي حيث لا دليل معه⁽¹⁾.

- قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: 198]. فبين سبحانه عدم انتفاعهم بآيات الهدى.

- وقال تعالى: ﴿فَمَا لَمْ يَنْتَبِهُوا إِلَىٰ أَلْتَذِكْرَةِ مَعْصِيَةِ رَبِّهِمْ الَّتِي كَانَتْهُمْ حُمْرًا مُّسْتَنْفِرَةً﴾ [فُورَاتٍ مِّن قُورَاتٍ] [المدثر: 49 - 51]. فهم قد نفروا عن الهدى الذي فيه سعادتهم وحياتهم كنفور الحمر عما يهلكها، ويعقرها وهم في جهلهم هذا كالحمر التي لا تعقل شيئاً⁽²⁾.

- وقال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ [يوسف: 105].

بين ١١١١ إعراض الصالحين عن النظر في الآيات الكونية ولذلك

(1) أعلام الموقعين لابن القيم (1/ 159).

(2) المصدر نفسه (1/ 164) بتصرف، السنن الإلهية (1).

فإن الكفار يشهدون على أنفسهم إذا عاينوا نتيجة ضلالهم بعدم العقل والسمع ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ (١٦) [المُلْك: 10]^(١).

2. الذنوب والمعاصي:

إن من أسباب الضلال حسب سنته ﷺ ارتكاب الذنوب والمعاصي وذلك أن الذنوب سبب في صدأ القلب وتكون الران عليه الذي يمنع من دخول الإيمان إلى قلب صاحبه، قال تعالى: ﴿وَمَا يَكْتُوبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ﴾ (١٦) إِذَا نُفِثَ عَلَيْهِ ءَايَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (١٣) كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿[المطففين: 12-14]. أي ليس الأمر كما زعموا، ولا كما قالوا: إن هذا القرآن أساطير الأولين، بل هو كلام الله ووحيه وتنزيله على رسوله ﷺ، وإنما حجب قلوبهم عن الإيمان به ما عليها من الران الذي قد لبس قلوبهم من كثرة الذنوب والخطايا⁽²⁾، ثم إن الذنوب إذا تتابعت على القلوب أغلقتها، وإذا أغلقتها أتاها حينئذ الختم من قبل الله ﷻ والطبع فلا يكون للإيمان إليه مسلك ولا للكفر منها مخلص، فذلك هو الطبع والختم الذي ذكره الله تعالى في قوله: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشْوَةً﴾ [البقرة: 7].

وجاء قوله تعالى مهدياً للذين يقتربون الذنوب والمعاصي بأن يطبع على قلوبهم فلا يدخلها الإيمان⁽³⁾.

(1) أعلام الموقعين لابن القيم (1/ 164).

(2) تفسير ابن كثير (4/ 485)، فتح القدير (4/ 400).

(3) السنن الإلهية في الحياة الاجتماعية (1/ 119).

- قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ يَهْدِي لِلَّذِينَ يَرْتُوتِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصْبَنَهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١١٧﴾﴾ [الأعراف: 100].

ثم إن الذنوب والمعاصي سبب في مرض القلوب، لأن صحتها تكون بمعرفة الله وطاعته والإنابة إليه والتزام أمره واجتناب نعيمه وإيثاره على غيره ومحبته والتوكل عليه وإفراجه بالعبودية دون سواه⁽¹⁾، فإذا تتابعت هذه الذنوب وتكاثرت اشتد مرض القلب، ثم لا تزال الذنوب بالقلب حتى تغلب عليه فيموت بالكلية، ومن مات قلبه فإنه لا ينتفع بالهدى ولا الإيمان ولا يسمع ولا يعقل ولا يبصر.

فالقرآن الكريم لا ينتفع به إلا من كان حياً أما من صار في عداد الأموات فإنه لا ينتفع به⁽²⁾.

قال تعالى: ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِيُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٧٠﴾﴾ [يس: 69-70].

وقال تعالى: ﴿وَإِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿١١٦﴾﴾ [الأنعام: 36].

3 اتباع الشيطان:

ومن أسباب الضلال الخطيرة والتي ضل بها كثير من الخلق، اتباع الشيطان الذي نذر نفسه وبذل عمره لإغواء بني آدم.

(1) إغاثة اللهفان لابن القيم (7 / 1)، السنن الإلهية (1 / 119).

(2) السنن الإلهية (1 / 119).

قال تعالى: ﴿قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ (١٤) قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فِيمَا أُغْوِيَنِي لِأَفْعِدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَآبِئْتَهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴿١٧﴾ [الأعراف: 14-17].

- وقال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ (٣٦) قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ بِمَا أُغْوِيَنِي لِأَرْسِنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَأَلْغُوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ [الحجر: 36-40].

وقد أمر الله ﷻ بالحدز منه، واستفراغ الجهد في معاداته وبين أنه عدو لدود وظاهر لبني الإنسان⁽¹⁾.

- قال ﷻ: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ (١) ﴿٦﴾ [فاطر: 6].

وقد جاء القرآن الكريم كاشفاً مداخل الشيطان وخططه في إضلال بني آدم في غير ما آية ومجمل هذه الخطط والمداخل ما يلي:

أ. الأمر بالسوء والفحشاء والقول على الله بغير علم:

قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ كُلُّوا مِنَّا فِي الْأَرْضِ حَنَافًا مِثْلًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ (١٦٨) ﴿١٦٩﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٧٠﴾ [البقرة: 168-169].

(1) روح المعاني للألوسي (15 / 94).

والسوء: الإثم، وقيل معاصي الله، فإنما سماها الله سوءاً لأنها تسوء صاحبها بسوء عاقبتها له عند الله، وأما الفحشاء فهي كل مستفحشة ذكره وقبح مسموعه، وقيل الزنا⁽¹⁾.

ب. تزيين الأعمال الباطلة والمحرمة:

- قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: 43]. من الشرك والمعاندة والمعاصي.

وبين الشيطان أنه يزين لبني آدم أعمالهم ليغويهم، قال تعالى حاكياً قوله: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر: 39].

- وقال تعالى مبيناً نتيجة تزيين الشيطان للناس أعمالهم وهو الضلال: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ [الثلث: 24].

- وقال ﷺ: ﴿وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءَ عَمَلِهِ وَصَدَّ عَنِ السَّبِيلِ﴾ [غافر: 37]، أي: صد عن طريق الهداية فأصبح ضالاً لا يقبل الهدى⁽²⁾.

وبين ﷺ أنه قد أضل هؤلاء الذين قبلوا تزيين الشياطين لهم فخلت بهم سنته في الضلال، وحق عليهم القول، فالشيطان حسنوا

(1) تفسير الطبري (2 / 772)، السنن الإلهية (1 / 122).

(2) السنن الإلهية في الحياة الاجتماعية (1 / 122).

لهم أعمالهم في الماضي وفي المستقبل، فلم يروا أنفسهم إلا محسنين، فعاقبهم بما ارتضوا لأنفسهم⁽¹⁾.

- قال تعالى: ﴿وَقِضْنَا لَهُمْ قُرْآنًا فَرَيْنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أَمْرِ قَدْ خَلَّتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَسِرِينَ﴾ ﴿١٥٠﴾ [فصلت: 25].

وتزيين الشيطان للناس أعمالهم على قسمين: فردي وجماعي، فالفردي كما في الآية السابقة من تزيين الشيطان لفرعون عمله، وأما التزيين الجماعي كما في قوله تعالى: ﴿وَعَادًا وَثَمُودًا وَقَدْ تَبَيَّرَكْ لَكُمْ مِنْ مَسْكِنِهِمْ وَزَكَّرَكْ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ﴾ ﴿٢٨﴾ [العنكبوت: 38]⁽²⁾.

ج الوعود والأمانى الكاذبة:

- قال تعالى: ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَأَمْرُنَّهُمْ فَلَيُبَيِّتَنَّهُمْ إِذَا كَانُوا فِي أَمْنٍ وَإِنَّا لَنَجْعَلُ لِيَتِيمِكُمْ فِي السَّبِيلِ﴾ ﴿١٢٠﴾ [النساء: 119 - 120] أي ولأضلنهم عن الحق ﴿وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ﴾ أي: أزين لهم ترك التوبة وأعدهم الأمانى وأمرهم بالتسويف والتأخير، وأغرهم من أنفسهم ﴿وَلَأَمْرُنَّهُمْ فَلَيُبَيِّتَنَّهُمْ إِذَا كَانُوا فِي أَمْنٍ﴾ قال عدد من العلماء: يعني تشقيها وجعلها سمة وعلامة للبحيرة والسائبة والوصيلة⁽³⁾، وأما تغيير خلق الله: فهو دين الله،

(1) تفسير ابن كثير (4 / 97)، السنن الإلهية (1 / 124).

(2) السنن الإلهية في الحياة الاجتماعية (1 / 125).

(3) صحيح تفسير ابن كثير (3 / 535).

ومعنى تغيير الدين تحليل الحرام وتحريم الحلال⁽¹⁾.

ومن الوعود الباطلة التي يعدها الشيطان لأتباعه: أنهم إذا أنفقوا في سبيل الله فسيحل بهم الفقر⁽²⁾.

- قال تعالى: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا﴾ [البقرة: 268].

وقد فسر ابن كثير: الفحشاء بالأمر بالمعاصي والمآثم والمحارم ومخالفة الخالق⁽³⁾.

ح . الاستهواء :

ومن الناس من يضلّه الشيطان بعد أن كان قد عرف الإيمان وذاقه، وقد صور الله حالة هذا الذي استهواه الشيطان بعد أن كان مؤمناً فيقول، قال تعالى: ﴿قُلْ أَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْنَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَىٰ أُوْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَىٰ اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَأُمِّرْنَا لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ لِحْزَانٌ﴾ [الأنعام: 71].

فالذي استهوته الشياطين هو الذي استغوته وزينت له هواه ودعته إليه، يقال: هوى يهوي إلى الشيء أسرع فيه، بعد أن كان مؤمناً⁽⁴⁾، ولفظ الاستهواء لفظ مصور ويا ليته يتبع هذا الاستهواء في

(1) السنن الإلهية في الحياة الاجتماعية (1 / 122).

(2) تفسير ابن كثير (1 / 312)، السنن الإلهية (1 / 126).

(3) تفسير ابن كثير (1 / 312).

(4) تفسير القرطبي (3 / 2454).

اتجاهه فيكون في اتجاه واحد، وهو الضلال، ولكن هناك من الجانب الآخر أصحاب يدعونه إلى الهدى يقولون: اتنا فلا يجيبهم ولا يهتدي بهديهم، وهو بين هذا الدعاء وهذا الاستهواء في حيرة واضطراب وضلال وتيه⁽¹⁾.

د . الموالة:

ومن الناس من يتخذ الشيطان ولياً ونصيراً ومعيناً من دون الله، يلتجئ إليه ويدعوه، قال تعالى: ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيْطَانَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهم مُّهْتَدُونَ﴾ ﴿٢٠﴾ [الأعراف: 30].

وقد قضى الله ﷻ فيمن تولى الشيطان أن يضلّه عن الصراط المستقيم ويهديه إلى عذاب الجحيم⁽²⁾.

- قال تعالى: ﴿وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ﴾ ﴿٣﴾ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَإِنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿٤﴾ [الحج: 3-4].

س . الاستحواذ:

ويبين الله ﷻ فريقاً من الذين يضلهم الشيطان وهؤلاء الذين يستولي عليهم استيلاء تاماً، ويغلب على عقولهم وقلوبهم بوسوسته، وتزيينه حتى يتبعوه في كل ما يأمرهم به، ويصبحون أداة طيعة للشيطان، فينسيهم ذكر الله بقلوبهم وألسنتهم⁽³⁾.

(1) فتح القدير للشوكاني (2 / 130) في ظلال القرآن (2 / 1132).

(2) السنن الإلهية (1 / 128).

(3) المصدر نفسه (1 / 128).

- قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُمْ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ آلَاٰهُمْ هُمْ الْكَٰذِبُونَ ﴿١٨﴾ أَسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَهُمْ وَذَكَرَ اللَّهُ أَوْلِيَّكَ حَزْبَ الشَّيْطَانِ آلَاٰ إِنَّ حَزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخٰسِرُونَ ﴿١٩﴾﴾ [المجادلة: 18 . 19].

- قال تعالى: ﴿﴿ أَلَمْ نَعْهَدْ لَكُمْ بِبَنِي ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطٰنَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٦﴾ وَأَن تَعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦٧﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [يس: 60 - 62].

4 . الجهل واتباع الظن :

- قال تعالى: مبيناً ضلال قوم ثمود: ﴿قَالُوا أَجِئْنَا بِتَأْفِكِنَا عَنِ ءٰهِنٰتِنَا فَأَنبَا بِمَا تَعَدَدْنَا إِن كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ إِنَّمَا أَلِئِمُّ عِنْدَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي أَرٰكُمْ قَوْمًا بَٰجِلُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الأحقاف: 22 . 23].

- وقال تعالى مبيناً ضلال من اتبع جهله، ونسب إليه سبحانه الولد، قال تعالى: ﴿وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِءَابَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿٥﴾﴾ [الكهف: 4 . 5].

- وقال تعالى مبيناً جهل كفار قريش بدعوتهم رسول الله ﷺ إلى عبادة ما يعبدون من الأصنام والأحجار والآلهة المزيفة المدعاة، قال تعالى: ﴿اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمٰوٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِعٰبِدَاتِ اللَّهِ أَوْلِيَّكَ هُمُ الْخٰسِرُونَ

﴿ قُلْ أَغْوَى اللَّهُ تَأْمُرُونِي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ ﴾ [الزمر: 62-64]

بين ﷺ عقابه للذين لا يعلمون وسنته فيهم فقال: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴿٥٨﴾ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الزوم: 58-59].

وأما اتباع الظن والذي هو مجرد حدس وخرص وأوهام والذي لا يبني على علم، فإنه ولا شك سبب من أسباب الضلال حسب سنته ﷺ، فقد سجل القرآن الكريم في كثير من الآيات على كفار قريش ضلالهم بسبب اتباعهم الظن . كسابقهم من الكافرين . وذلك بجعل الأصنام شركاء لله، وعبادتهم لها وزعمهم أنهم مجبورون في ضلالهم هذا وغيرهم⁽¹⁾.

- قال ﷺ: ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾﴾ [يونس: 66].

- وقال تعالى: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ [يونس: 36].

- وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُستَقْبِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [الجمانية: 32]⁽²⁾.

(1) روح المعاني (8 / 51)، في ضلال القرآن (3 / 1227).

(2) السنن الإلهية في الحياة الاجتماعية (1 / 132).

5 . الجدل في الله وآياته بغير علم :

ومن أعظم أسباب الضلال: الجدل في توحيد الله وصفاته، وشرعه، وقدره، وكتابه، واليوم الآخر بغير علم، يدفعهم لذلك الكبر، والجهل، والحسد والتعصب، ويزعمون للناس ولأنفسهم أنهم إنما يناقشون ويجادلون، لأنهم لم يقتنعوا بالحق، وأنهم غير مستيقنين فيه⁽¹⁾.

- قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَتْهُمْ إِنْ فِي سُؤْدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُمْ بِبَالِيغِيهِ فَاَسْتَعِذُوا بِاللَّهِ إِنَّهُمْ هُمُ السَّامِعُونَ الْبَصِيرُونَ﴾ [غافر: 56].

- وقال تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ۗ ۝۳۴﴾ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَتْهُمْ كِبْرٌ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُّتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿ [غافر: 34-35].

وقال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ۗ ۝۸﴾ ثَاقِبَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَمَّا فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَتَذْيِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٩﴾ [الحج: 8 . 9].

6 - الغفلة :

من أسباب الضلال غفلة الناس عن الأدلة الموصلة إلى الحق والهدى وعدم النظر فيها :

(1) في ضلال القرآن (5 / 3089). السنن الإلهية (1 / 132).

- قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي آخِذَاتِ الْأَيْدِي وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنَّنُوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ ﴿٧﴾ أُولَئِكَ مَا لَهُمْ أَمْرٌ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾﴾ [يونس: 6 . 8].

- وقال ﷺ: ﴿أَقْرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾ مَا يَأْتِيهِمْ مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِمْ مُّحَدِّثٍ إِلَّا أَسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾ لَأَهْلِيَّةً قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنبياء: 1 . 3].

- وقال تعالى: ﴿سَاءَ صِرْفٌ عَلَى الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ يُعْتَرِ الْحَقُّ وَإِنْ يَرَوْا كَلِمَةً عَائِيَةً لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَُوا سَبِيلَ الرَّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَُوا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٤٦﴾﴾ [الأعراف: 146].

7. التعصب:

إن التعصب للباطل من أسباب الضلال، قال تعالى مبيناً أثر التعصب في ضلال اليهود، وعدم إيمانهم، واتباعهم لرسول الله ﷺ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا تَوْفِينَا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَنُكَفِّرُونَ بِمَا وَرَأَيْنَاهُمْ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾﴾ [البقرة: 91].

وقال تعالى مبيناً تعصب كل من طائفتي اليهود والنصارى لنفسها وزعم كل طائفة منهما أنها على الحق دون غيرها، فكفر اليهود بعمسى ﷺ رغم أنه منهم، وقد كانوا ينتظرونه لإعادة مجدهم وعزهم تعصباً وقالت النصارى: أن اليهود ليسوا على شيء حقيقي

من الدين لإنكارهم المسيح المتمم لشريعتهم⁽¹⁾.

قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾ وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصْرَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصْرَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾﴾ [البقرة: 111 - 113].

8 التقليد:

إن من أسباب الضلال عند الكافرين من الأولين والآخرين التقليد للأباء دون نظر أو فكر، قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرِيْبٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ ﴿١٢٣﴾﴾ [الزخرف: 23].

- وقال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِيَّاهُ مُرِيبٍ ﴿٩﴾﴾ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُخْرِجَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَتْ يَدُؤُنَا آبَاءُنَا فَأَنْتُمْ بَشَرٌ مِثْلُنَا نَبِئِ الْوَالِدِينَ وَالْحَالَاتِ ﴿١٠﴾﴾ [إبراهيم: 9-10].

(1) تفسير المنار (1 / 429).

لقد كانت حجة الكافرين بالله المعرضين عن الانتفاع بالآيات التي جاءهم بها الأنبياء، قولهم: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: 22]. وهي مقولة تدعو إلى السخرية، فوق أنها متهافة لا تستند إلى قوة إنها مجرد المحاكاة ومحض التقليد، بلا تدبر ولا تفكر ولا حجة ولا دليل، وهي صورة مزرية تشبه صورة القطيع حيث هو منساق ولا يسأل أين يمضي ولا يعرف معالم الطريق⁽¹⁾.

إنها: طبيعة الجمود العقلي الذي تطبعه الوثنيات في العقول، لا يفكر أصحابها فيما يعبد آباؤهم ما قيمته؟ وما حقيقته؟ وماذا يساوي في معرض النقد والتفكير⁽²⁾؟

ومن الأقوام التي حدثنا القرآن الكريم عنها، وكان من أسباب ضلالها تقليد الآباء: قوم نوح عليه السلام الذين قابلوا دعوة نبيهم بالرفض والجحود بدون دليل أو سند سوى أنهم لم يسمعوا بمثل دعوته في آبائهم الأولين وكان الحججة والدليل هو ما سمعوه من آبائهم.

- قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِن إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٣﴾ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَفْضَلَ عَلَيْكُمْ وَوَلَّىٰ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأُولَىٰ ﴿١٤﴾﴾ [المؤمنون: 23 - 24].

(1) في ظلال القرآن (5/ 3182).

(2) المصدر نفسه (4/ 2091)، السنن الإلهية في الحياة الاجتماعية (1/ 141).

وقوم عاد يعجبون مما ليس منه عجب، وينكرون على نبيهم أن يأتيهم بعبادة الله الواحد، ونبذ عبادة الآلهة المتفرقة التي كان يعبدها آباؤهم الأولون فيسألون منكرين : ﴿أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحَدُّهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ [الأعراف: 70] .

وبنفس العلة والحجة رفضت ثمود دعوة أخيهم ونبيهم صالح عليه السلام وجعلوا ما عليه آباءهم . سواء أكانوا سابقين أو حاضرين . حجة تمنعهم من الإيمان⁽¹⁾ .

- قال تعالى: ﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوا لَهُمْ تَتوبوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦٦﴾ قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّا لَفِي شَكِّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٌ ﴿٦٧﴾﴾ [هود: 61 . 62] .

وكذلك نجد قوم إبراهيم يصرون على عبادة التماثيل التي لا تضر ولا تنفع ولا يجدون جواباً لسؤال نبيهم : ﴿مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾ [الأنبياء: 52] ، إلا أن قالوا: ﴿قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ﴾ [الأنبياء: 53] ، هذا هو الجواب، وهو جواب يدل على التحجر العقلي والنفسي داخل قوالب التقليد، في مقابلة حرية الإيمان وانطلاقه للنظر والتدبر، وتقويم الأشياء والأوضاع بقيمتها الحقيقية لا التقليدية، فالإيمان بالله يحرر الإنسان من القدسات الوهمية التقليدية والوراثات المتحجرة التي لا تقوم على دليل⁽²⁾ .

(1) السنن الإلهية (1/ 143).

(2) في ظلال القرآن (4/ 2385).

وقوم شعيب يقولون لنبيهم : ﴿قَالُوا يَنْشَعِيبُ أَصْلُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ تَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَقْعَلَ فِيْ أَمْوَالِنَا مَا نَشْتَوُا إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴿١٨٧﴾ [هود: 87]. وقابل فرعون وملؤه دعوة موسى ﷺ بالتقليد الأعمى المزري الذي يسيطر على العقول فيجعلها لا تفكر، وعلى البصائر فيقفلها فلا يجعلها تنظر أو تعتبر: ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَلْفِنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمُ الْكِرْبَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمُ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٨٨﴾ [يونس: 78].

وأما كفار قريش فقد قال تعالى حاكياً أقوالهم: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوْلَوْا كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠٤﴾ [المائدة: 104].

- وقال تعالى: ﴿أَمْ آتَيْنَهُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾ بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا عَلَىٰ سَبِيلٍ وَإِنَّا عَلَىٰ سَبِيلِهِمْ مُهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ [الزخرف: 21 - 22].

- وقال تعالى: ﴿وَإِذَا نُنزِلُ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا يَنْتَوِيحُوا بِهَا حَتَّىٰ يُجْعَلُوا لِلآرْسِلِ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤَكُمْ ﴿٤٣﴾ [سبأ: 43].

والقرآن الكريم وهو يدعو إلى هذا التحرر والتفكير يسوق الأدلة والآيات والحجج والبراهين التي تبرهن وتثبت أنه دين الله الذي فيه نجاة البشر جميعاً من الظلمات إلى النور⁽¹⁾.

- قال تعالى: ﴿هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾ [الأعراف: 203].

(1) تفسير المنار (2/ 27)، السنن الإلهية (1/ 147).

- وقال تعالى: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَزَكَاةً وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾﴾ [البقرة: 151].

فمن تدبرها وعقلها وصل إلى الحق واهتدى ومن هنا فقد كان سبيل المؤمنين المهتدين هو الاتباع عن بصيرة وتدبر وتعقل⁽¹⁾، كما قال موسى عليه السلام عندما سأله فرعون: قال تعالى: ﴿قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَمُوسَى ﴿١٦١﴾ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ حَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ﴿١٥٦﴾ قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى ﴿١٥١﴾ قَالَ عَلِمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴿١٥٢﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى ﴿١٥٣﴾ كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٥٤﴾﴾ [طه: 49 . 54].

وكما قال يوسف عليه السلام متبعاً ملة آبائه ولكن عن بصيرة ويقين⁽²⁾، قال تعالى: ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٢٧﴾ وَأَتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانُوا لَنَا أَنْ نَشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٨﴾ يَصْدَحُّجِي السِّجْنِ أَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٢٩﴾﴾ [يوسف: 37-39].

وهكذا أمر الرسول صلى الله عليه وسلم باتباع ملة إبراهيم عليه السلام، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي هَدَيْتُ رَبِّيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٥﴾﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ

(1) السنن الإلهية في الحياة الاجتماعية (1/ 147).

(2) تفسير المراغي (12/ 174).

الْعَالَمِينَ ﴿١٦٤﴾ لَا شَرِيكَ لَكَ وَيَذَلِكْ أَمْرَتْ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٥﴾ قُلْ أَغَيَّرَ اللَّهُ
أَبْنِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ ﴿١٦٦﴾ [الأنعام: 161 . 164].

- وقال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا
وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾﴾ [التحل: 123].

فاتباع الآباء واقتفاء آثار السابقين من الذين هداهم الله عن بينة
ودليل هو سبيل الهداية، كما قال تعالى بعد أن ذكر أنبياء الله الذين
هداهم من إبراهيم وإسحاق ويعقوب ونوح وداود وسليمان وأيوب
ويوسف وموسى وهارون وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس وإسماعيل
واليسع ويونس، ولوطاً ومن آبائهم وذرياتهم.

قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدْهُمُ اقْتَدِهْ قُلْ لَا
أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [الأنعام: 90].

وأما اتباع الأبناء والآباء والأجداد وتقليدهم والتمسك بأرائهم،
ومحاكاتهم في كل أقوالهم وأعمالهم من غير بينة ولا حجة ظناً منهم
أنهم على الحق، دون النظر في أدلة من يدعوهم إلى الهدى، وقيم
الدلائل والبيئات على صحة ما يدعو إليه وهو الضلال، وهو سبيل
الكافرين، وعلّة الإعراض عن الإيمان بالله والسير على طريق الهدى
الذي ارتضاه للناس⁽¹⁾.

9 . الشك والريبة :

ومن الأسباب التي يستحق بها بعض العباد الضلال: مرض
القلوب وهو خروج القلب عن صحته، فإن صحته أن يكون عارفاً

(1) السنن الإلهية (1 / 149).

بالله، محباً له مؤثراً له على غيره، ومرض القلب هو شكه فمرض المنافقين هو مرض شك⁽¹⁾.

وقد جعل الله ﷻ ذلك سبباً في زيادة المرض في قلوبهم، وعدم إيمانهم، فالمرض ينشيء المرض، والانحراف يبدأ يسيراً ثم ينفرج الزاوية في كل خطوة، سنة لا تتخلف⁽²⁾.

- قال تعالى: ﴿ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴾ [البقرة: 10].

- وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا مَا أَنْزَلْنَا سُورَةً فَمِنْهُمْ مَن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿١٢٥﴾ ﴾ [التوبة: 124 . 125].

- وقال تعالى: ﴿ كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴾ [غافر: 34].

وبين ﷻ في آية أخرى أنه يعاقب المنافقين الذين لا يوفون بعهودهم مع الله ﷻ بنفاق مستمر في قلوبهم إلى يوم لقائهم، وهذا حسب سنته ﷻ في تأثير الأعمال على النفوس، وأن العمل بما يقتضيه النفاق يمكن النفاق ويقويه القلب⁽³⁾.

- قال تعالى: ﴿ وَمِنْهُمْ مَّنْ عَاهَدَ اللَّهُ لَئِنِ آتَيْنَا مِنْ

(1) شفاء العليل، ص: 211.

(2) في ظلال القرآن (1 / 43) السنن الإلهية (1 / 43).

(3) روح المعاني (10 / 144)، تفسير المنار (10 / 648).

فَضْلِهِ لَنَصَدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا آتَتْهُمْ مِنْ فَضْلِهِ
بَجَلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ
يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ [التوبة: 75-77].

ثم قال ﷺ مبيناً أنه لا يهدي هؤلاء المنافقين، لأن سنته ﷺ جرت في الممعنين في فسوقهم، وتمردهم المصرين على نفاقهم الذين أحاطت بهم خطاياهم أن يفقدوا الاستعداد للتوبة والإيمان والهداية⁽¹⁾، قال تعالى: ﴿أَسْتَغْفِرَ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرَ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرَ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٨٠﴾﴾ [التوبة: 80].

10 . الجحود:

ومن الأسباب التي رتب الله ﷻ عليها الضلال حسب سنته ﷺ في الهداية والضلال: الجحود والذي يعني الإنكار مع العلم⁽²⁾.

- قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَرًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَرُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الأحقاف: 26].

﴿إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾: بمنزلة التعليل لسلبه إياهم ما

(1) تفسير المنار (10 / 657)، السنن الإلهية (1 / 150).

(2) الصحاح (2 / 451) للجوهري.

أنعم عليهم به من السمع والبصر والعقل، حتى وقعوا في الضلال⁽¹⁾.

- قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ ءَايَنْتَهُمُ الْكُتُبَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ﴾ [العنكبوت: 47].

- وقال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لِآرْتَابِ الْمُبِطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلْ هُوَ آيَاتٌ يَبَيِّنُ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ﴾ [العنكبوت: 48-49].

- وقال تعالى: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوَّجٌ كَالظَّلِيلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الَّذِينَ قَلَّمَا يَجِدُهُمْ إِلَى الْآخِرِ فَنَجَّاهُمْ مُقْتَصِدًا وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَسَّارٍ كَفُورٍ﴾ [لقمان: 32].

والختار: الذي هو في غاية الغدر، والكفور: الذي لا يشكر نعمة الله، بل يجحدها⁽²⁾.

- وقال تعالى: ﴿وَلَنَلَّكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ [هود: 59].

- وقال تعالى: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجَ بَيْضَاءَ مِن غَيْرِ سُوِّ فِي نِسْعٍ ءَايَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِتْمَهُمْ كَأَنَّهُمْ قَوْمًا أَسْفِينًا ﴿١٢﴾ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ ءَايَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَحَدِّدُوا بِهَا وَأَسْتَقِنْتَهَا أَنفُسَهُمْ ظَلَمًا

(1) السنن الإلهية (1 / 151).

(2) تفسير القرطبي (6 / 5162-5163).

وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾ [النمل: 12 - 14].

- قال تعالى: ﴿قَدْ نَعَلِمَ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يَكْذِبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: 33].

وإذا كان مصير الجاحدين بآيات الله في الدنيا الضلال والغواية فإن مصيرهم في الآخرة الحسرة والندم، إذ يكونون من أصحاب النار⁽¹⁾.

- قال تعالى: ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهَا عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٥٠﴾ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتَهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسَهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ [الأعراف: 50-51].

11 . التآبي والعناد والتعنت:

فالتآبي عن الإيمان، وعصيان أوامر الله يؤديان لصاحبهما إلى الضلال، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آرَبْتُهُ أَيْتَانَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى ﴿٥١﴾﴾ [طه: 56].

وأما العناد فحالة نفسية تدفع بصاحبها إلى التآبي عن الانصياع للحق على سبيل المكابرة دون أن تكون لديه مبررات بذلك، حتى ولو كانت مبررات زائفة أو باطلة⁽²⁾.

(1) السنن الإلهية في الحياة الاجتماعية (1 / 157).

(2) المصدر نفسه (1 / 157).

- قال ﷺ مبيناً أن العناد مانع عن الهدى وسبب في الضلال:
﴿كَلَّا إِنَّكُمْ كَأَنْتُمْ لِأَبْتِنَا عُيْدًا﴾ [المذثر: 16].

وقال مبيناً على الضلال ومصوراً شدة عناد الضالين .

- وقال تعالى: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ
يَعْرَجُونَ﴾ [الحجر: 14، 15].

- وقال ﷺ عنه: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَّسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ
لَقَالُوا الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [الأنعام: 7] ، وقد بلغ
العناد من كفر قريش غايته، حين قالوا: ﴿اللَّهُمَّ إِنْ كَانَتْ هَذِهِ هُوَ
الْحَقُّ مِنِّكَ فَامْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابَهُ مِنَ السَّمَاءِ أَوْ اثْبِتْنَا بِعَذَابِ
إِسْرَائِيلَ﴾ [الأنفال: 32].

وأما مثال التعنت ما كان من كفار قريش عندما طلبوا من
الرسول ﷺ أن يأتيهم بآية من ست آيات اقترحوها، ولو عقلوا
لأدركوا أن في القرآن وفي الكون أضعافاً مضاعفة عن هذا العدد أو
هذه الآيات التي طلبوها⁽¹⁾، قال تعالى حاكياً قول كفار قريش:
﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا﴾ [١٣] أَوْ تَكُونَ
لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّجِيلٍ وَعَسَىٰ فَتُنَجِّرَ الْأَنْهَارَ جَلَّالَهَا تَفْجِيرًا﴾ [١١] أَوْ تُسْقِطَ
السَّمَاءَ كَمَا زَعَمَتِ عَلَيْنَا كَيْسَفًا أَوْ تَأْتِي بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا أَوْ يَكُونَ
لَكَ بَيْتٌ مِّنْ زُخْرِفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُفَيْكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا

(1) تفسير الطبري (15 / 159 - 166).

كِنْبًا نَقَرُوهُمُ قُلُوبًا سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ﴿٩٣﴾ [الإسراء: 90 .
[93].

12 . الكبر :

من أسباب الضلال طبقاً لسنته ﷺ في الهداية والإضلال، وقد قال ﷺ: «الكبر بطر الحق وغمط الناس»⁽¹⁾.

وقال النووي الكبر هو الارتفاع عن الناس واحتقارهم ودفع الحق⁽²⁾.

وقد وردت الآيات في ذم الكبر والمتكبرين وهو سبب الضلال والإضلال⁽³⁾.

قال ﷺ عن الكفار: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الصفات: 35] ، أي : يتعظمون أن يقولوها كما يقولها المؤمنون .

- وقال تعالى: ﴿إِلَهُكُمْ إِلَهٌُ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكَرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾ [النحل: 22].

وقال عن ضلال اليهود بسبب كبرهم: ﴿أَفَكَلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ [البقرة: 87].

(1) مسلم، ك الإيمان، باب تحريم الكبر (1 / 93).

(2) صحيح مسلم شرح النووي (2 / 91).

(3) السنن الإلهية (1 / 160).

وقال عن كبر كفار قريش وامتناعهم لذلك عن الإيمان، كسابقيهم: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَائِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا ﴾ [الفرقان: 21].

وأما قوم نوح فقد وصفهم نبيهم ﷺ كما حكى القرآن ذلك: ﴿ وَإِنِّي كُنَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِيُخْرِجَهُمْ لِيَتَّخِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أُصْلِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَأَسْتَفْسَأُوا نِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَأَسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ﴾ [نوح: 7]، فقوله: ﴿ جَعَلُوا أُصْلِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ ﴾ [نوح: 7] لثلا يسمعوا صوتي ﴿ وَأَسْتَفْسَأُوا نِيَابَهُمْ ﴾ أي: غطوا بها وجوههم لثلا يروني، وقيل جعلوا نياهم على رؤوسهم لثلا يسمعوا كلامي فيكون استغشاء الثياب على هذا النحو زيادة في سد الآذان⁽¹⁾.

- وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا تَنَلَّىٰ عَلَيْهِ ءَابُنَا وَلَٰئِ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشَّرَهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [لقمان: 7].

- وقال تعالى: ﴿ يَسْمَعُ ءَايَاتِ اللَّهِ تُنَلَّىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ﴾ [الجاثية: 8].

- وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوًّا رَوَّسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ ﴾ [المنافقون: 5].

وإذا كان المتكبر يدفعه كبره ألا يسمع آيات الله، وإذا سمعها فلا ينظر فيها ولا يتدبرها، ولا ينقاد إلى ما تدعو إليه من الهدى،

(1) فتح القدير (5/ 297)، السنن الإلهية (1/ 164).

عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ
بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ [إبراهيم: 2 - 3].

- وقال تعالى: ﴿فَاعْرِضْ عَنْ مَن تَوَكَّنَ عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ
الدُّنْيَا﴾ ﴿٣٦﴾ [النجم: 29].

- وقال تعالى: ﴿وَقَالَكَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَئَهُ
زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوهُ عَنِ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَنَّا
أَمْوَالَهُمْ وَأَشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾
[يونس: 88].

- وقال ﷺ مسجلاً على الكافرين بسبب غرورهم بالدنيا: ﴿ذَلِكُمْ
بِأَنَّكُمْ اتَّخَذْتُمْ ءَايَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَعَرَضْتُمْ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ [البجائية: 35].

ثم إن حبهم لهذه الدنيا يدفعهم إلى الانغماس في شهواتها
ومنها إلى حد الترف الذي من طبيعته، أنه يفسد الفطرة، ويغلظ
المشاعر، ويسد المنافذ، ويفقد القلوب تلك الحساسية المرهفة التي
تتلقى وتستجيب وتستجيب⁽¹⁾.

فقال تعالى مبيناً أن المترفين اتبعوا ترفهم وكفروا بما أرسل به
المرسلون: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةَ يَتَهُونَ عَنِ
الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ آمَنَّا مِنْهُمْ وَآتَعْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا
أَتَوْا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ [هود: 116].

- وقال تعالى ذكره: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ

مُتْرَفُوهاً إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿١١٤﴾ [سبأ: 34].

14 . اتباع الهوى :

والمقصود بالهوى ميل النفس للشهوة⁽¹⁾.

لقد جرت سنة الله تعالى في الهداية والإضلال أن يكون اتباع الهوى سبباً من أسباب الضلال .

- قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [القصاص: 50] .

- وقال سبحانه: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِّرَ عَلَيْكُمْ أَنَّهُ حَلَالٌ لَّكُمْ مِمَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَاءِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ﴾ [الأنعام: 119] .

- وقال سبحانه: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ الهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَظِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ [ص: 26] .

- وقال ﷻ: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوَاهُ وَأَصْلَهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: 23] .

والتعبير القرآني المبدع يرسم نموذجاً عجيباً للنفس البشرية حيث تترك الأصل الثابت وتتبع الهوى المتقلب، حين تتعبد هواها وتخضع له، وتجعله مصدراً لتصوراتها، وأحكامها ومشاعرها

(1) ذم الهوى لابن الجوزي، ص: 12.

وتحركاتها، وتقييمه إلهياً قاهراً لها مسؤولاً عليها، تتلقى إشارته المتقلبة بالطاعة والتسليم والقبول، يرسم هذه الصورة ويعجب منها في استنكار شديد ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنْ أَخَذَ إِلَهُهُ هَوْنَهُ﴾ [الجنائية: 23] ؟ أفرايت إنه كائن عجيب يستحق الفرجة والتعجب، وهو يستحق من الله أن يضلّه، فلا يتداركه برحمة الهدى فما أبقى في قلبه مكاناً للهدى وهو يتعبد هواه المريض ﴿وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ على علم من الله باستحقاقه للضلالة، أو على علم منه بالحق لا يقوم لهواه ولا يصدّه عن اتخاذها إلهاً يطاع، وهذا يقتضي إضلال الله له، والإملاء له عماء ﴿وَوَخَّمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً﴾ فانطمست فيه تلك المنافذ التي يدخل منها النور، وتلك المدارك التي يتسرب منها الهدى، وتعطلت فيه أدوات الإدراك بطاعته للهوى، طاعة العباد والتسليم ﴿فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ﴾ والهدى هدى، وما من أحد يملك لأحد هدى أو ضلالة، فذلك من شأن الله الذي لا يشاركه فيه أحد، حتى رسله المختارون، ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الصافات: 155] ومن تذكر صحا وتنبه وتخلص من ربة الهوى، وعاد إلى النهج الثابت الواضح، الذي لا يضل سالكوه⁽¹⁾.

وهذه السنة سنة الله في إضلال من اتبع هواه تحققت في أقوام سابقة وستمضي دائماً في كل قوم يتبعون أهوائهم ويحيدون عن الحق⁽²⁾.

- قال تعالى: ﴿فَإِنْ لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَكْفُرُونَ أَهْوَاءَهُمْ﴾ [القصص: 50].

(1) في ظلال القرآن (5/ 3230. 3231).

(2) السنن الإلهية (1/ 171).

- وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ۗ ﴿٤١﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴿٤٢﴾﴾ [النازعات: 40 - 41].

وقد حذر الله ﷻ نبيه داود عليه السلام من أن يؤثر هواه في قضائه بين الناس على الحق والعدل فيه فيكون نتيجة ذلك ميله عن طريق الله الذي جعله الله ﷻ لأهل الإيمان به، فيكون من الهالكين بضلاله عن سبيل الله، قال تعالى: ﴿يَدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا سُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ﴿٢٦﴾﴾ [ص: 26].

وقال تعالى محذراً خاتم الأنبياء والمرسلين من طاعة من أغفل الله قلبه عن ذكره، واتبع هواه المتقلب وآثره على الحق.

- قال تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴿٢٨﴾﴾ [الكهف: 28].

ومن المواطن التي حذر الله ﷻ عباده من اتباع الهوى فيها ما جاء في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَاقِرًا فَإِنَّ اللَّهَ أَوَّلُ بِمَا فَلَ تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا وَإِن تَلَوُّا أَوْ تُعْرَضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٢٥﴾﴾ [النساء: 135].

- وقال تعالى: ﴿قُلْ يٰٓأَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴿٧٧﴾﴾ [المائدة: 77].

- وقال تعالى مبيناً عدم اتباع الرسول ﷺ للهوى تجنباً لما

يستتبعه الهوى من الضلال: ﴿قُلْ لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذَا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ [الأنعام: 56].

- وقال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا فَأَنْسَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَرَكَهٗ يَلْهَثُ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾﴾ [الأعراف: 175-178].

وهكذا يتبين لنا بجلاء أهمية الهوى، وإن الوقوع في ذلك وقوع في الضلال وبالتالي الوقوع في الفساد الشامل للسماء والأرض ومن فيهم كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ﴾ [المؤمنون: 71].

فالحق واحد ثابت، والأهواء كثيرة متقلبة، وبالحق الواحد يدبر الكون كله فلا ينحرف ناموسه لهوى عارض ولا يتخلف سنته لرغبة طارئة، ولو خضع الكون للأهواء العارضة والرغبات الطارئة لفسد كله، ولفسد الناس معه، ولفسدت القيم والأوضاع، واختلت الموازين والمقاييس، وتأرجحت كلها بين الغضب والرضى والحب والبغض والرغبة والرهبة والنشاط والخمول وسائر ما يعرض من الأهواء والمواجِد والانفعالات والتأثرات، وبناء الكون وبما فيه الإنسان يحتاج إلى الثبات والاستقرار والاطراد على قاعدة ثابتة، ونهج مرسوم لا يتخلف ولا يتأرجح ولا يحد(1).

(1) في ظلال القرآن (4/ 2475).

15 . الاستهزاء بآيات الله ورسله والمؤمنين :

- قال تعالى: ﴿ذَلِكَ جَزَاءُكُمْ جَهَنَّمَ بِمَا كَفَرْتُمْ وَتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا﴾ [الكهف: 106].

- وقال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِذْ يَنْخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا﴾ [الفرقان: 41].

- وقال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا فَرِيقًا مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَبِيرُ الرَّحِيمِينَ﴾ [الأنعام: 163] فَأَتَّخَذْتُمُوهُمْ سَخِرَاتًا حَتَّىٰ أَنْسَوَكُم ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ﴾ [المؤمنون: 109 - 110].

وهكذا فإن الاستهزاء بآيات الله ورسله والمؤمنون، يشغل صاحبه عن التدبر والتفكير في دلائل الإيمان التي في الوجود، وفي دلائل صدق رسول الله ﷺ، ويشغله أيضاً عن الاعتبار بما أثر الإيمان في نفوس أصحابه وحالهم وسلوكهم وإن ذلك الاستهزاء أيضاً يباعد بينه وبين صاحبه عن كل الدلائل والبيانات ولا شك أن ذلك كله يسلمه إلى الضلال والغبي⁽¹⁾.

16 . الكفر :

بين ﷺ في غير ما آية وإن سنته في الكافرين هي أن يعاقبهم بالإضلال وعدم الهداية، وقد جاء التعبير عن كفرهم هذا بالظلم تارة، وبالفسق تارة أخرى، وبالتكذيب ثالثة، وبالإجرام رابعة، ليضيف كل لفظ من هذه الألفاظ معنى آخر، بالإضافة إلى معنى

(1) السنن الإلهية (1 / 178)، في ظلال القرآن (4 / 2482).

الكفر، وقد جاء بيان جزائهم في أكثر من سياق سواء في الكفر أو الفسق أو الظلم، ليكشف أيضاً علل ذلك الكفر، وصفات الذين حكم عليهم بالكفر أو الفسق أو الظلم وعدم الهداية لهم، ومن خلال تتبع الآيات التي جعلت الظلم والفسق والكفر والإجرام سبباً في الضلال وعدم الهداية، وتبين أن المقصود بمعظمها الشرك وعدم الإيمان بالله وما يترتب عليه، ووجد نبوة محمد ﷺ والتكذيب بها، وإن كان لكل لفظ من هذه الألفاظ له معناه الذي يختص في الأصل والوضع⁽¹⁾.

أ - الفسق: والفسق يقع على كثير الذنب وقليله، ولكنه تعورف بالكثير أكثر، ومن وجوه ورود الفسق في القرآن في الكفر وترك التوحيد، فالكافر فاسق لإخلاله بما ألزمه العقل واقتضته الفطرة السليمة⁽²⁾، قال تعالى: ﴿وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [الثور: 55].

ومن الآيات التي بينت سنة الله في إضلال هذا الصنف من الناس والذي يجمع بينهم الكفر قوله سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةٌ فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ (٣١) [البقرة: 26].

- وقال ﷺ: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ ءَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ

(1) السنن الإلهية (1 / 180).

(2) المصدر نفسه (1 / 180).

وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَبِجَارَةٍ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسْكَنٌ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿ [التوبة: 24].

المعنى: قد مضت سنة الله تعالى في القوم الفاسقين المارقين من الدين بعد معرفتهم، كالمنافقين أن يكونوا محرومين من الهداية الفطرية التي يعرفها الإنسان بالعقل السليم والوجدان الصحيح، فلا يعرفون ما فيه مصلحتهم وسعادتهم من اتباعه فيؤثرون حب القرابة والمنفعة العارضة كالمال والتجارة على حب الله ورسوله والجهاد المفروض في سبيله⁽¹⁾.

وقال ﷺ في حق المنافقين وهم كافرون عن الحقيقة: ﴿أَسْتَفْهَرْتُمْ أَوْ لَا تَسْتَفْهَرْتُمْ إِنْ تَسْتَفْهَرْتُمْ لَكُمْ سَعِينٌ مَرَّةٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿ [التوبة: 80].

أي جرت سنة الله في الراسخين في فسوقهم وتمردهم، المصيرين على نفاقهم الذي أحاطت بهم خطاياهم أن يفقدوا الاستعداد للهداية، والله ﷻ لذلك لا يهديهم، عقوبة منه لأنهم لا يستحقونها⁽²⁾.

وأما ترتيب عدم الهداية بسبب الظلم: فقد ورد في آيات كثيرة، منها:

(1) تفسير المنار (10 / 236).

(2) تفسير المنار (10 / 567)، السنن الإلهية (1 / 182).

- قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ فَقَامْنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأحقاف: 10].

فحرمهم الله سبحانه الهداية لظلمهم لأنفسهم بالكفر بعد قيام الحجة الظاهرة على وجوب الإيمان، ومن فقد هداية الله ضل⁽¹⁾.

- وقال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِلُوا الثَّورَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الجمعة: 5].

- وقال تعالى: ﴿﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾﴾ [التوبة: 19].

- وقال ﷺ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَيْبِهِ أَنْ ءَاتَتْهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُعْبُدُ وَأُمِّيْتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَلْيَكُفُرْ بِاللَّهِ الَّذِي كَفَرُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: 258].

فإنه ﷺ من سنته أن لا يهدي الذي ظلم نفسه بالامتناع عن قبول الهداية، ولم ينظر في الدلائل التي توصل إلى معرفة الحق، ويستسلم للطاغوت، ويترك ما أعطاه الله من الفهم، اتباعاً لهواه وشهوته، وهو حينئذ قد ظلم نفسه وضل ضلالاً بعيداً⁽²⁾.

(1) فتح القدير (5 / 16)، السنن الإلهية (1 / 182).

(2) تفسير البيضاوي (1 / 73)، تفسير المراغي (3 / 27).

ومن الآيات التي جاءت تبين أن الكفر سبب في تحقق الله في الإضلال:

قوله سبحانه: ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحَلِّثُونَ أَخَاً وَيُحَرِّمُونَ أَخَاً لِيُؤْطِطُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيَحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زُرُوا لَهُمْ سُوءَ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿37﴾ [التوبة: 37].

- وقال ﷺ: ﴿يَأْتِيهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [المائدة: 67].

- وقال تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٤﴾﴾ [الزمر: 3].

- وقال ﷺ مبيناً أن التكذيب بآيات الله سبب في الضلال: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونُوا مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٩٥﴾﴾ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿ [يونس: 95-96].

وقال ﷺ مبيناً أن الإجمام سبب في الضلال، وسبب في حلول سنة الله فيمن هذه صفة (1) ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١١﴾﴾ كَذَلِكَ نَسَلُكُمْ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ

(1) السنن الإلهية (1 / 187).

الْأَوَّلِينَ ﴿ [الحجر: 11-13].

17. الغلو في الأنبياء والصالحين:

إن الإفراط والغلو في تعظيم الأنبياء والصالحين بالقول والاعتقاد والفعل وتجاوز الحد والحق في منزلتهم التي أنزلهم الله إياها من ادعاء الألوهية لهم أو صرف شيء من العبادة. لا تنبغي إلا لله. لهم مثل التشريع والذبح والتضرع والدعاء إلى غير ذلك من أنواع العبادات سبب في الضلال⁽¹⁾.

فأما عن ضلال اليهود والنصارى بسبب غلوهم، فقد قال تعالى: ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَنَلَهُمُ اللَّهُ أَن يُوَفَّوْا وَعَدَّهُمْ ۗ ﴿٣٠﴾ أَخَذُوا آخْبَارَهُمْ وَرَبَّنَّهُمْ أَزْيَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَمَا أُمْرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحٰنَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿ [التوبة: 30-31].

- وقال ﷺ عن غلو النصارى في عيسى ابن مريم عليه السلام:
﴿ يَتَاهَلُّ الْكُتُبَ لَا تَعْلَمُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَدُوخٌ مِّنْهُ فَفَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ ثَلَاثَةٌ لَّنَّهٗ أَنْتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحٰنَهُ أَنْ يَكُونَ لَهٗ وَلَدٌ وَلَدٌ لَّهُ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿ [النساء: 171].

(1) السنن الإلهية (1/ 195).

18 . صحبة السوء والبيئة الفاسدة:

بين ﷺ أن صاحب السوء قد يكون سبباً في ضلال صاحبه، قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعْزُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَلَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً ﴿٧٧﴾ يَتَوَلَّى لِيَتَنِي لَوْ اتَّخَذَ فَلَانًا خَلِيلاً ﴿٧٨﴾ لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا ﴿٧٩﴾﴾ [الفرقان: 27 . 29].

ويصور القرآن الكريم جانباً من وسوسة صاحب السوء لصاحبه بقوله: ﴿يَقُولُ أَءَأَنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ دَا مِنَّا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا أَيْنَا لَمَدِينُونَ ﴿٥٧﴾﴾ على سبيل الاستهجان والاستبعاد للبعث والحساب، ثم يبين أنه لولا فضل الله على ذلك صاحب وعدم استجابته له لكان هو وإياه في سواء الجحيم⁽¹⁾.

- قال تعالى: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٥٦﴾ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥٦﴾ يَقُولُ أَءَأَنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ دَا مِنَّا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا أَيْنَا لَمَدِينُونَ ﴿٥٨﴾ قَالَ هَلْ أَنشَ مُطَّلِعُونَ ﴿٥٩﴾ فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٥٩﴾ قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدَّتْ لَتُرِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُخْضَرِّينَ ﴿٥٧﴾﴾ [الصفافات: 50 . 57]، فمخالطة أهل السوء ومصاحبهم ضلال، أو سبيل إليه، ومقاربة منه⁽²⁾.

19 . التشبه بالضالين:

حذر القرآن الكريم بالتشبه باليهود والنصارى وسائر الكفرة لأن

(1) في ظلال القرآن (5 / 2987 . 2988).

(2) السنن الإلهية (1 / 200).

هذا التشبه يؤدي إلى الضلال، ومن ذلك قوله ﷺ: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ ءَادُوا مُوسَى فَبَرَّاهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهاً﴾ [الأحزاب: 69].

- وقال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: 105].

- وقال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [الأنفال: 47].

وكل ما ورد في القرآن من قصص اليهود أو النصارى، أو سائر الكفرة من الملل الأخرى في بيان معاصيهم وأخلاقهم ومعتقداتهم الباطلة، فيه عبرة لنا حتى لا نتشبه بهم فنضل كما ضلوا⁽¹⁾.

20 . الابتداع في الدين :

البدعة طريقة في الدين مخترعة تضاهي الشرعية يقتصد بالسلوك عليها ما يقصد بالطريقة الشرعية⁽²⁾.

قال ﷺ: «أما بعد فإن خير الحديث كتاب الله وخير الهدى هدى محمد، وشر الأمور محدثاتها وكل بدعة ضلالة»⁽³⁾، فقولته: كل بدعة ضلالة: هو من جوامع الكلم لا يخرج عنه شيء، وهو

(1) اقتضاء الصراط المستقيم لابن تيمية، ص: 17.

(2) الاعتصام للشاطبي (1/ 37).

(3) مسلم، ك الجمعة (2/ 591).

أصل عظيم من أصول الدين وهو شبيه بقوله ﷺ: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد»⁽¹⁾ فكل من أحدث شيئاً ونسبه إلى الدين ولم يكن له أصل من الدين يرجع إليه فهو ضلالة، والدين بريء منه، وسواء في ذلك الاعتقادات أو الأعمال أو الأقوال الظاهرة والباطنة⁽²⁾. وعن العرياض بن سارية قال: «صلى بنا رسول الله ﷺ ذات يوم، ثم أقبل علينا فوعظنا موعظة بليغة ذرفت منها العيون ووجلت منها القلوب، فقال قائل: يا رسول الله، كأن هذه موعظة مودع، فماذا تعهد إلينا؟ فقال: أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة، وإن أمر عليكم عبد حبشي، فإنه من يعش منكم بعدي فسيرى اختلافاً كثيراً، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء المهديين الراشدين تمسكوا وعضوا عليه بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة»⁽³⁾.

ودوافع البدعة كما ذكر الشاطبي رَحِمَهُ اللهُ هِيَ: الجهل، حسن الظن بالعقل، واتباع الهوى، وكل ذلك من خطط الضلال وأسبابه والعياذ بالله، فالإحداث في الشريعة، إنما يقع إما من جهة الجهل، وإما من جهة تحسين الظن بالعقل، وإما من جهة اتباع الهوى في طلب الحق، وهذا الحق بحسب الاستقراء في الكتاب والسنة. . إلا أن الجهات الثلاثة قد تنفرد وقد تجتمع، فإذا اجتمعت فتارة تتعلق بالأدوات التي تفهم بها المقاصد وهي اللغة العربية، فإن الله أنزل القرآن بلفظ عربي ولا يستخرج أحكامه ويعرف مقاصده إلا من كان

(1) فتح الباري بشرح صحيح البخاري (5/ 301).

(2) جامع العلوم والحكم، ص: 233.

(3) سنن أبي داود (5/ 15. 13).

على علم باللغة وأصولها، وتارة تتعلق بالمقاصد، وذلك بالجهل أن الله أنزل الشريعة على رسوله ﷺ فيها وتبيان كل شيء يحتاج إليه الخلق في تكاليفهم التي أمروا بها وتعبداتهم التي طوقوها في أعناقهم، ولم يمت رسول الله حتى كمل الدين بشهادة الله بذلك حيث قال تعالى: ﴿أَلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: 3].

فكل من زعم أنه بقي في الدين شيء فقد كذب بقوله: ﴿أَلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾.

وأما جهة تحسين الظن فتارة يشرك في التشريع مع الشرك، وتارة يقدم عليه، وهذان النوعان يرجعان إلى نوع واحد، وأما جهة اتباع الهوى فمن شأنه أن يغلب الفهم حتى يغلب صاحبه الأدلة أو يستند إلى غير دليل⁽¹⁾. من هنا يتبين أن الابتداع في الدين وعدم اتباع هدى الله ﷻ سبب من أسباب الضلال⁽²⁾.

(1) الاعتصام (2/ 293) بتصرف.

(2) السنن الإلهية (1/ 207).